

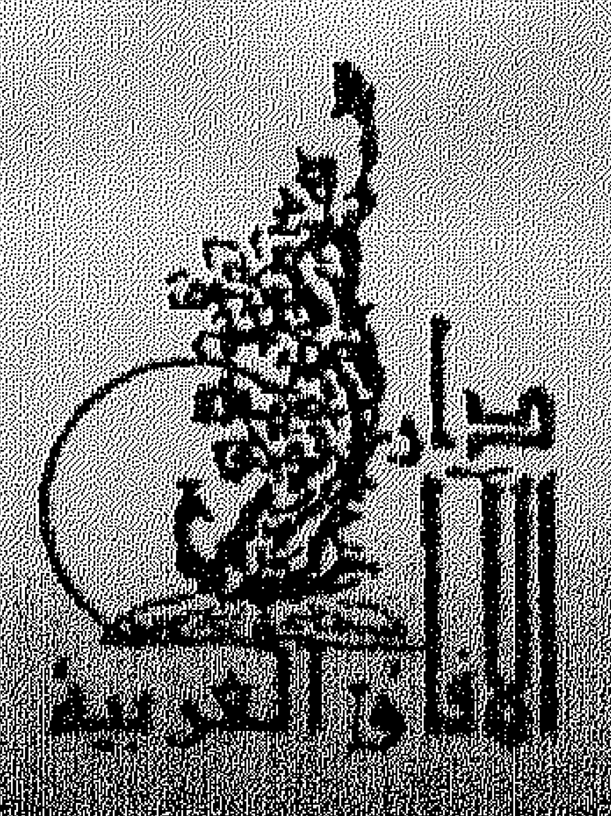
خيال الظل

واللعب والتماثيل المصورة عند العرب

بقلم

العلامة المحقق المغفور له

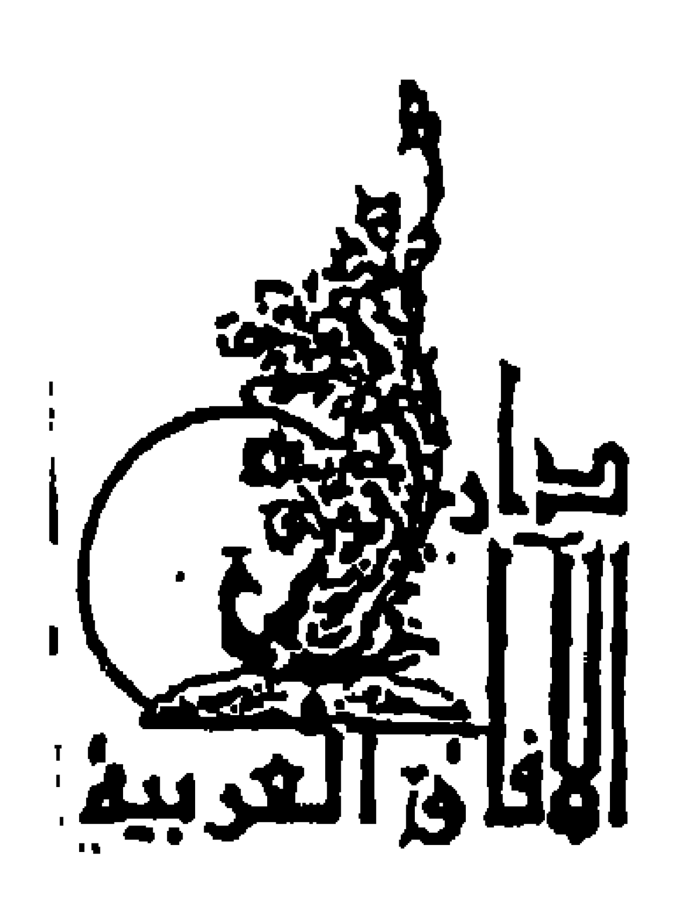
أحمد تيمور باشا

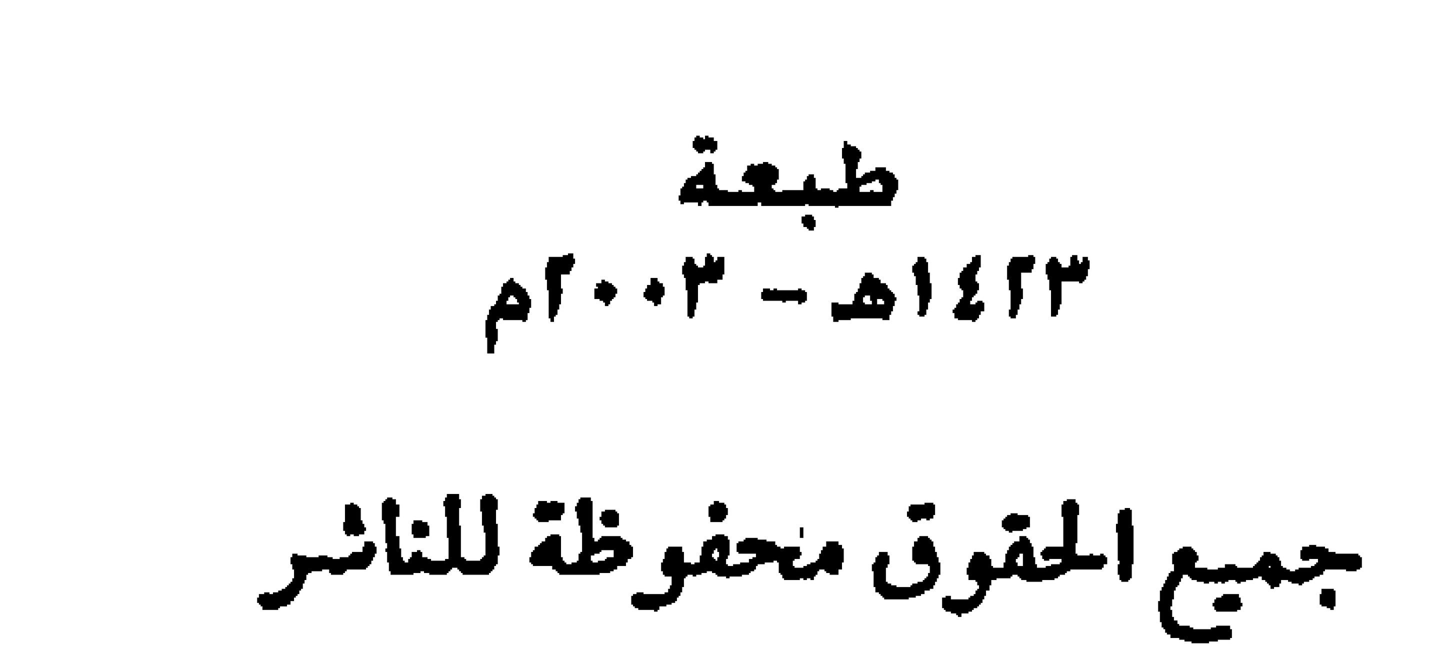



خيال الظل
واللعب والتماثيل المصورة عند العرب



بقلم
العلامة المحقق المغفور له
أحمد تيمور باشا





طبعة

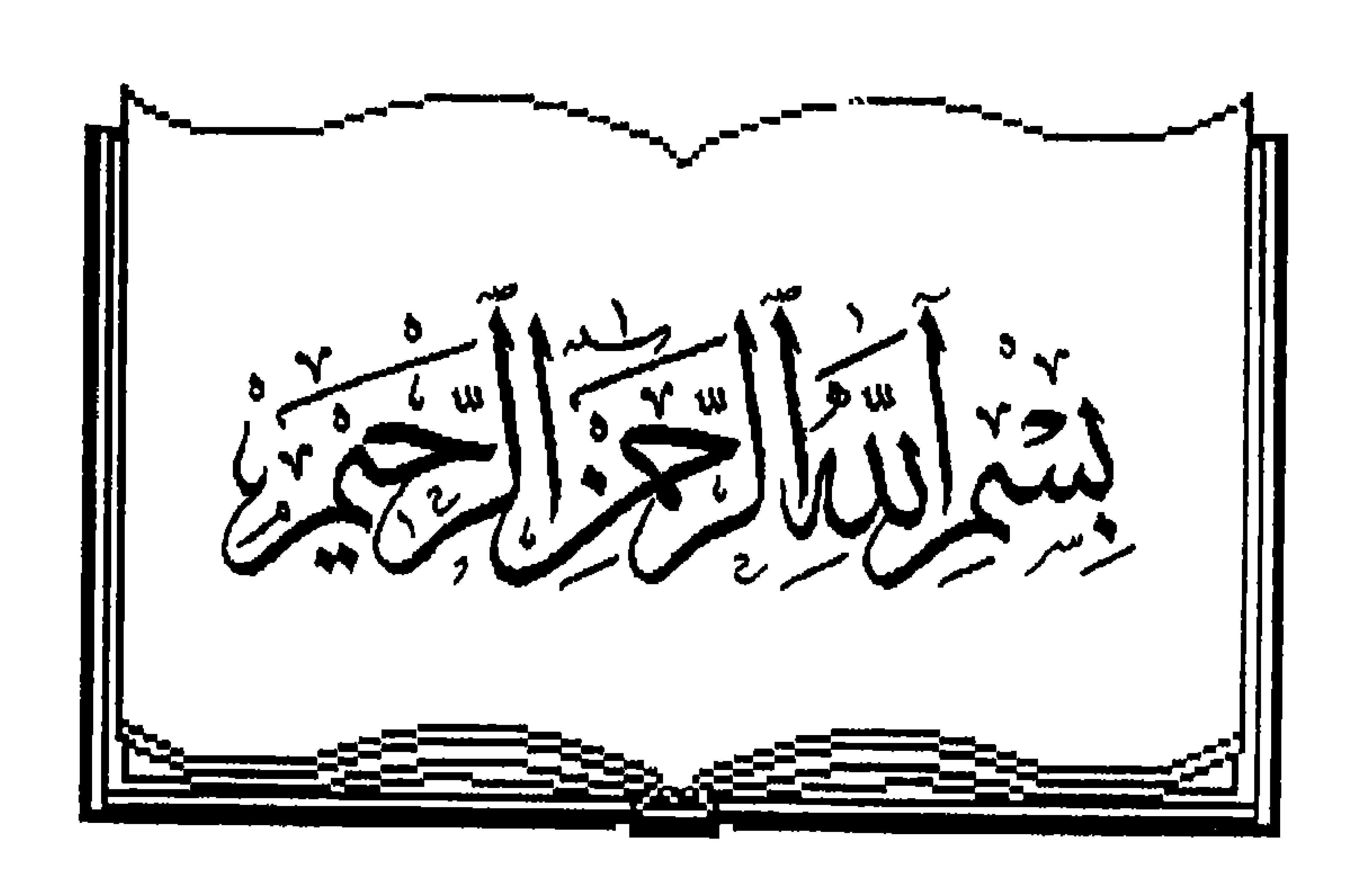
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٤٠٣٩
I.S.B.N الترقيم الدولى	977-344-032-x

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت: ٢٦١٠١١٦٤


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً
وقال إنني من المسلمين}

صدق الله العظيم

فصلت /٣٣



العلّامة المحقّق المغفور له أحمد تيمور باشا

خيال الظل

واللعب والتماثيل المصورة عند العرب

كان الجانب الأكبر من حياة المغفور له العلامة « أحمد تيمور باشا » وقفا على البحث والمطالعة ، والتنقيب عن كنوز المخطوطات النفيسة ، فى اللغة والأدب والتاريخ ، وعلوم العرب وفنونهم المختلفة . ثم العناية بتنقيتها من شوائب النسخ والتحريف والتصحيف ، والعكوف على صقلها وتجليتها مرتبة منسقة ، بدقة العالم وفطنته وأمانته ، وألمعية الأديب وحساسيته . . وقدرته على إتقان عرض فكرته .

من أجل ذلك ، كان نشر « المؤلفات التيمورية » رسالة من أعلى الرسالات وأنفعها للمكتبة العربية الحديثة . ولا تزال الكتب التى نشرتها اللجنة المضطلعة بهذه الرسالة موضع الرعاية الكريمة والعناية العظيمة من أكابر العلماء والأدباء ، وجمهرة المثقفين وهواة الاطلاع .

* * *

وهذا كتاب تيمورى جديد ، تضيفه اللجنة — ولها أن تفخر — إلى ما أخرجت للناس من فيض إنتاج ذلك العلامة الفذ ، وذخائره الممتازة لقومه الناطقين بالضاد .

ومن حق التاريخ على اللجنة ، ومن حق العلامة المؤلف عليها كذلك أن تصرح لقراء هذا الكتاب بأنه من بين المؤلفات التيمورية العديدة قد امتاز بأنه لم يعد ابتداء ليكون كتاباً بالمعنى المفهوم للكتاب . ولكنه بحوث متفرقة للمؤلف ، أعد كل بحث منها وسجله بخطه على حدة ، أو ضمن تعليقاته وحواشيه على صفحات

المؤلفات التى ضمتها مكتبته الحافلة . ونشر فى حياته بعض هذه البحوث فى كبريات المجلات العلمية والأدبية المشهورة فى عصره فجاءت اللجنة فجمعتها وألفت ما بينها ، فإذا هى بعد ذلك ليست كتاباً واحداً فحسب ، ولكنها كتب كثيرة فى كتاب !

* * *

وأول هذه الكتب كتاب « خيال الظل » . فيه يتحدث المؤلف البحاثة الخبير عن « صفة اللعب بالخيال » . ويذكر المراجع القديمة والحديثة التى ذكرته وعرفت به وأرخت له . ويسجل طرائف مما قيل فيه ، وفى لاعبيه ، ومحبيه . ثم يسجل ملخصات دقيقة وافية لاثنتى عشرة قصة من قصصه الرائعة منذ أول العهد بخيال الظل بين الفنون المستحدثة ، إلى العهد الذى لخصها فيه .

وهذه القصص الاثنتا عشرة ، كل منها قصة ولعبة ، فبأيتهما شئت سمها . . وهى : لعبة علم وتعادير ، ولعبة التمساح ، ولعبة أبى جعفر ، والشونى ، والأولانى ، والحجية ، والحمام ، ولعبة التياترو ، والقهوة ، والشيخ شميشم ، ولعبة العجائب ، وحرب السودان .

وقد رسم المؤلف الكبير أهم الخطوط الرئيسية لمشاهد كل قصة ، وأهدافها ومراميها ، ولأبطالها ذكوراً وإناثاً ، وما يدور فيها على الألسن المختلفة اللهجات من عظات بينات ، ونقدات وملاحظات ، ومضحكات ومبكيات .

أليس فى بعض هذا كله ما يصلح لأن يكون كتاباً وأى كتاب ؟!

* * *

وفى بحث آخر للمؤلف تقرأ تاريخاً وافياً دقيقاً ، وتسجيلا جليلا للعب أخر ، كانت ممارستها من العادات المرعية عند العرب فى جاهليتهم و بعدها ، كهولا وشباباً بنين و بنات .

ومع هذا البحث الفريد المفيد ، ملحقات عن التماثيل والصور التى اتخذها العرب للعبادة ، أو اللهو ، أو لتزيين ما شيدوا من قصور ، وما أعدوا من مجالس للسماع والاستمتاع بما آل إليهم من نعيم دنيوى عظيم .

وتتوالى الملحقات ببحث الصور والتماثيل ، فملحق عن التماثيل الجماعية ، وآخر عن التماثيل الفردية ، وثالث لتماثيل الزهور ، أو الحيوانات الخيالية ، أو الطيور المغرِّدة . ورابع عن عجائب الحيل الهندسية ، وخامس عن المصنوعات السحرية . . . إلى ملحقات كثيرة طريفة أخرى عن غرائب التحف والأدوات والآلات ، المهداة إلى ملوك العرب الأولين ، ثم إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وحكام الأندلس . فردوس العرب المفقود !

وكل ملحق من هذه الملحقات المفيدة . . . كتاب !

* * *

وقد تفضل العالم الأديب الفنان ، الدكتور حسين فوزى الوكيل الدائم لوزارة الإرشاد القومى ، فراجع أصول هذا المؤلف التيمورى الجديد لتحقيق الغاية السامية التى قصد إليها مؤلفه ، من تسجيل لآثار العرب ، وإشادة بما بلغت حضارتهم من تقدم وازدهار .

ولئن كانت لجنة نشر المؤلفات التيمورية قد سرها وأعجز شكرها ما أسبغ على رسالتها من عطف وتأييد ، فليس من شك فى أن قراء هذا الكتاب فى مصر والأقطار العربية كلها أجدر بتقدير هذا الفضل ، وأقدر على شكر هذا الصنيع الجميل الجليل .

وقد رأت اللجنة أن تقدم بين يدى الكتاب بموجز عن تاريخ الأسرة التيمورية والنابغين النابهين من أبنائها ، وفى مقدمتهم مؤلف الكتاب وأنجاله الكرام .

وإن اللجنة ليسرها أن تعرب عن شكرها الصادق العميق لكل من تفضلوا بمشاركتها فى أداء رسالتها ، ضارعة إلى الله العلى القدير أن يجزل مثوبتهم .

عن اللجنة

عبد السلام شهاب

الأسرة التيمورية
ومكانتها في العلم والأدب والمعرفة

قل فى النابهين الممتازين من رجالات مصر فى عصرها الحديث ، من اكتمل له — بجانب سجاياه الذاتية الحميدة وتبريزه فى مختلف الميادين العلمية والأدبية والاجتماعية — مثل ما اتفق للعالم الأديب العظيم ، المغفور له « أحمد تيمور باشا » مؤلف هذا الكتاب ، من الانتماء إلى أصول عريقة زكية ، خالدة بأمجاد الآباء والأجداد . ومن فروع طيبة تنتمى إليه ، وكانت خير خلف لخير سلف . وبها وعلى هدى انتاجها الغزير ، اتصلت طرائق مجد الأسرة التيمورية ، طارفها وتليدها ، وامتدت إلى ما شاء الله من غايات ساميات ، بعد غايات ساميات !

كان أول عهد الأسرة بمصر ، وعهد مصر بها ، حينما أقبل عميدها الأول « اسماعيل تيمور » فيمن أقبلوا من تركيا إلى مصر ؟ مع محمد على ، لرأب ما انصدع من الحكم العثمانى فى مصر ، ووضع حد لمطامع المماليك ومؤامراتهم الدموية المتواصلة للاستئثار بالحكم والسلطان .

ولئن كان « محمد على » قد استطاع أن يثب بمكانته من جندى فى جيش السلطان العثمانى ، إلى منصب « والى مصر » بإرادة شعبها . . ثم استهوته شياطين الأثرة والسيطرة وحب الذات ، فكفر بأنعم الشعب المصرى ، وأعلن نفسه وأفراد أسرته من بعده ملوكا جبارين ، يسخرون الشعب فى تثبيت دعائم سلطانهم ، ويستأثرون من دونه بخيرات البلاد ، فقد حرص « اسماعيل تيمور » على أن يختط لنفسه وأسرته خطة أسمى وأنبل ، وأبقى أثراً ونفعاً . فأبى بعد أن بلغ مرتبة القيادة فى الجيش أن يجرد سيفه فى غير ما يطمئن إليه قلبه وضميره ، واكتفى

من سلطان الحكم بتولى بعض المناصب الإدارية فى الأقاليم ، حيث كان مثلا يذكر فيشكر للحاكم العادل القدير .

وكذلك كان شأنه فى منصب رياسة الديوان الخديوى فى عهد إسماعيل ، إذ وقف كل جهده فى القصر على التلطف لكبح جوامح الرغبات الخديوية الاستبدادية ، ومحاولة وضع حد لمغامرات الخديو المالية ، وتبصيره بحاجات الشعب الحقيقية . وفى الوقت ذاته ، نأى بجانبه عن دسائس القصر ، ومخالطة الأمراء ورجال الحاشية ومن إليهم من النفعيين والانتهازيين المتزلفين . وآثر على صحبتهم صحبة الكتب التى أولع باقتنائها ، وكانت له فى داره نعم الجليس الأنيس .

* * *

ولم يكن عجبا أن ينشأ أحمد تيمور وشقيقته عائشة ، على مثل هذا الخلق المتأصل فى نفس والدهما إسماعيل تيمور . . فكان تحصيل العلم والمعرفة والانتفاع والنفع بهما غايتهما الكبرى .

وسجل التاريخ لعائشة التيمورية ما سجل من مآثر ومفاخر ، ليس أكبرها أن نثرها وشعرها أول ما عرفت مصر من الأدب النسوى فى العصر الحديث .

أما أحمد تيمور فكان له دور أكبر وأخطر ، وأجدر بأن يكون مثلا وقدوة لكل طموح إلى معالى الأمور ، عازف عن لغو الحياة وملهياتها المختلفات .

فقد نشأ فى بيت والده ، وعنه أخذ حب الحق والخير والعلم والأدب . ثم انتقل بعد وفاة والده إلى دار شقيقته وكان زوجها المرحوم « محمد توفيق بك » من المحبين للعلم والمعرفة . وعنده من الكتب شىء كثير ، فى مختلف العلوم والفنون . فانطبع حب اقتناء الكتب فى نفس « أحمد تيمور » منذ ذلك الحين .

ولما بلغ أشده ، واستوى . وأسند إليه منصب فى الحكومة ، ما لبث قليلا حتى عاف ذلك العمل الرتيب الممل ، فتركه غير آسف إلى الإشراف بنفسه

على الأرض التى أورثها له أبوه ، وإلى استكمال تعليمه . . وإتقان اللغة العربية فضلا عن الفرنسية والتركية ،

واختار لنفسه أساتذته فأحسن الاختيار . . وحسبك أن من بينهم : الشيخ رضوان المخللاتى ، والشيخ حسن الطويل ، والشيخ الشنقيطى ، والشيخ محمد عبده .

وكانوا له أساتذة وأصدقاء . وكانت داره ناديا جامعا نافعا ، يلقون فيه المحاضرات والدروس ، ويعقدون مجالس للبحث والمناقشة وتبادل الآراء والأفكار .

وفى هذه الدار ، ألقى الإمام محمد عبده محاضراته المشهورة عن الإسلام ، بدعوة من أحمد تيمور .

وما أكثر الندوات التى عقدت بالدار ، وشهدها واشترك فيها مشاهير العلماء والأدباء ، أمثال : البارودى ، وصبرى ، والحسينى ، والزرقانى ، والسمالوطى ، والهورينى .

على أن ذلك كله لم يشبع طموح أحمد تيمور ورغبته الدائمة فى الاستزادة من العلم . . فاتصل بكثيرين من العلماء الأعلام والقادة العظام فى خارج مصر ، واستفاد منهم كثير . . ولا شك أنهم استفادوا منه الكثير .

* * *

ولما اتسعت مكتبته الخاصة ، وكثر ماضم إليها من نوادر المخطوطات ، ونفائس المؤلفات ، اتخذ لها دارا خاصة فى الزمالك . ولم يزل يتعهدها بالتنمية حتى صارت بحق المكتبة المصرية الثالثة فى مصر ، بعد دار الكتب ، ومكتبة الأزهر .

وقد زودها بكثير من الصور « الفوتوغرافية » التى التقطها وأعدها بنفسه ، للمشاهد الأثرية والتاريخية التى درست معالمها بعد ذلك ، كالقناطر التى كانت على الخليج[1] قبل ردمه فى القاهرة . وبذلك أدى خدمة جليلة للتاريخ .

وفى المكتبة عدا ذلك مجموعة من صور أساطين الإسلام ، أمثال :

(١) وأن اللجنة تحتفظ بمجموعات كبيرة من هذه الصور والموميات الزجاجية داخل علب متنوعة.

صلاح الدين الأيوبى ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد القادر الجزائرى . . وغيرهم .

ولئن كان أحمد تيمور لم يخرج فى حياته كتابا لنفسه ، فما كان ذلك إلا عن تواضع كريم منه ، وإيثار للتريث والتثبت ، وللانصراف إلى البحث والدرس والكتابة . حتى لقد ترك من مؤلفاته المخطوطة ، عشرات من أنفس ، ما كتب الكاتبون .

وشاء الله إلا أن تظهر هذه الكتب بعد وفاة صاحبها سنة ١٩٤٥ فقيض لذلك لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، وقيض للجنة رئيساً خبيرا قديرا ، بلغ المكانة القصوى بين رجالات العلم والقلم ، هو الأستاذ الكبير خليل ثابت وقد وفقت اللجنة حتى الآن إلى نشر كثير من تلك المخطوطات العلمية والتاريخية واللغوية والأدبية . ولا يزال لديها الكثير مما هى بسبيل نشره منها ، كتابا بعد كتاب .

وكما ورث أحمد تيمور حب العلم والأدب وأهلهما عن والده اسماعيل تيمور . . أورث ذلك أولاده الثلاثة : اسماعيل ، ومحمد ، ومحمود .

وقد بلغ المرجوم اسماعيل تيمور مرتبة كبيرة فى وظائف القصر ، وكان إلى ذلك عالما أديبا محبا ومقدرا للعلماء والأدباء . . و بقى كذلك إلى أن اختاره الله إلى جواره .

وكان محمد تيمور أول رائد لفن التمثيل والتأليف له من بين أبناء السراة المصريين ولولا المنية عاجلته فى ريعان شبابه ، لكان لذلك الفن على يديه شأو بعيد المنال الآن .

أما محمود تيمور ، أصغر أنجال الفقيد ، فهو الآن أحد « الخالدين » المختارين لعضو مجمع اللغة العربية . كما أنه يواصل إنتاجه القصصى والأدبى الغزير ، الذى عقد له لواء الزعامة بين كتاب القصة العربية الحديثة ، وترجم منه الكثير إلى اللغات الأجنبية ، غربية وشرقية ، فكان ذلك فخرا باقيا لكل مصرى وكل عربى .

وأنه قبل ذلك و بعد لفخر أكبر وأبقى للأسرة التيمورية ذات التاريخ ، والفضل على التاريخ .

مقدمة المؤلف

خيالُ الظلّ

كان للناس شغف بالخيال — خيال الظل — فى مصر ، حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجرىّ . فكانت له سوق نافقة فى الأعراس ، قلّ أن يُقام عرس لا يلعب الخيال فى إحدى لياليه ، وكانت له قهاو يلعب فيها ، إلى أن اخترع الإفرنج (الصور المتحرّكة) وكثرت أماكن عرضها فى مصر ، فأكبّ الناس عليها وهجروا أماكن الخيال فأبطلت ، واقتصر على اللعب به فى الأعراس على قلّة ، حتى قلّ المشتغلون به ، وكاد يدرس فيما درس من الأشياء القديمة . وآخر من أدركناه قيما بالفن على الطريقة القديمة مع الإجادة فى تحرير الأزجال ، وإتقان صور الشخوص « الحاج حسن القشاش » .... ثم قام من بعده ولده الأسطى درويش .

صفة اللعب بالخيال

يتخذون له بيتاً مربعاً يقام بروافد من الخشب ، ويكسى بالخيش أو نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر أبيض يشدّ من جهاته الأربع شدًّا محكما على الأخشاب ، وفيه يكون ظهور الشخوص ، فإذا أظلم الليل دخل اللاعبون هذا البيت ، ويكونون خمسة فى العادة ، منهم غلام يقلّد النساء ، وآخر حسن الصوت للغناء . فإذا أرادوا اللعب أشعلوا ناراً قوامها القطن والزيت تكون بين أيدى اللاعبين ، أى بينهم وبين الشخوص ، ويُحرّك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ، يمسك اللاعب كلّ واحد بيد ، فيحرّك بهما الشخص على ما يريد .

وتتّخذ الشخوص من جلود البقر ، وهى فى الغالب جلود تعمل منها أعكام للعشبة التى تأتى من السودان ليتداوى بها — فيشترى بعضها لاعبو الخيال من

التجار ، و يصوّرون منها مايشاءون من الشخوص ، ثمّ يصبغونها بالأصباغ على ماتقتضيه ألوان الوجوه والثياب وأجسام الحيوان وجذوع الأشجار وأوراقها وثمارها وأحجار المبانى وغير ذلك — بحيث إذا عرضت « الصور » أمام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهيّة لشفوف تلك الجلود .

ولنشرع ببيان اللعب المعروفة فى هذا العهد(١) ، لعبة لعبة على سبيل الإجمال . مبتدئين بما يقال و يفعل فى الاستفتاح .

الاستفتاح

الاستفتاح : يظهر فيــه شبه عقد على أعمدة ، دقيق الصنعة ، معلّق به قناديل وثريّات ، يسمّونه : « القوصَرَة » و يظهر به من الشخوص الشخص المسمّى بـ (المقدَّم) فيستفتح اللعب بإنشاد زجل فيه مديح نبوىّ وتحيّة للحاضرين ، ووصف للقوصرة ، وما فيها من الثريّات ودقيق الصناعة . وأشهر أزجال الاستفتاح زجل اعتادوا إنشاده فى ليالى الأعراس أوله : قبل ما نبدى . . .

ولهم استفتاحات غير ذلك .

مراجع قديمة و حديثة

وقد ورد حديث خيال الظل فى كثير من الـكتب والمراجع القديمة والحديثة نذكر منها :

مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق . ج٢ ص٣٣ بالحاشية :

نسبة خيال الظل لجعفر الراقص والـكلام فى ذلك .

المقتبس ج١ ص ٤٣٥ — ٤٣٦ خيال جعفر الراقص الخ .

رسملى عثمانلى تاريخى ج٢ ص٣٣ بالحاشية : خيال الظل عند العثمانيين .

---

(١) فى هذا العهد : أى فى حياة المغفور له أحمد تيمور باشا

المغرب ٤١٨ تاريخ ص١٢١ : بيتان فى (خيالى) .

ابن رابية : حرف (الراء) « رئيس المجنبطين » .

المجموع رقم ٧٧٦ شعر أول ص١٨٤ : دور من زجل «تعاذير فى البيمارستان» .

فض الختام عن التورية والاستخدام — للصفدىّ آخر ص٢٤ — ٢٥ : بيتان فيهما جعفر — و بعدها للمؤلّف أنّه مخترع الخيال الراقص .

وفى ديوان سبط بن التعاويذىّ قصيدة ، قيل إنه حضر مع جماعة فى بستان جعفر الراقص بالجانب الغربىّ ببغداد ، فلمّا خرج كتبها على حائط بركة فى البستان ، وهذه القصيدة للعلامة صلاح الدين بن إيبك الصفدى ، ننقلها فيما يلى عن كتاب « الحسن الصريح فى مئة مليح » الذى كتبه بخطه سنة ٧٣٨ هـ . وهو محفوظ بدار الكتب المصرية :

بُسْتَانُ جَعْفَرَ مِثْلُهُ فِي ظَرْفِهِ وَشَمَائِلِهْ
وَالبِرْكَةُ الْفَيْحَاءُ تَخْجَلُ مِنْ نَدَاهُ وَنَائِلِهْ
فِيهِ الأَنَابِيبُ الَّتِي تَنْهَلُّ مِثْلَ أَنَامِلِهْ
يَاحَبَّذَا وَلَعُ النَّسِيمِ ببانِهِ وَخَمَائِلِهْ
وَتَرَنُّمُ الدُّولاَبِ فِي غَدَوَاتِهِ وَأَصَائِلِهْ
وَالمَاءُ كَالْحَيَّاتِ بَيْنَ مُرُوجِهِ وَجَدَاوِلِهْ
وَالْغَيْمُ قَدْ صَدَقَتْ كَوَاذِبُ بَرْقِهِ وَمَخَايِلِهْ
وَالرَّوْضُ قَدْ جَاءتْكَ أَنْفَاسُ الصَّبَا بِرَسَائِلِهْ
وَالْغُصْنُ كَالنَّشْوَانِ يَعْثُرُ فِي فُضُولِ غَلاَئِلِهْ
وَلَرُبَّ يَوْمٍ قَدْ وَهَبْتُ الْحَقَّ فِيهِ لِبَاطِلِهْ
وَشَرَيْتُ عَاجِلَ مَا احْتَضَرْتُ مِنَ السُّرُورِ بِآجِلِهْ
فَتَشَابَهَتْ حُسْنًا أَوَاخِرُ يَوْمِنَا بِأَوَائِلِهْ

وقال فى مليح مخايل :

هَوِيتُ خَيَالِيًّا حَكَى الْغُصْنَ قَدُّهُ　　إِذَا ما انْثَنَى هَاجَتْ عَلَيْهِ الْبَلَابِلُ
أَرَاقَ دَمَ الْعُشَّاقِ سَيْفُ جُفُونِهِ　　وَمِنْ بَعْدِ ذَا أَضْحَى عَلَيْهِمْ يُخَايِلُ

وقال فيه أيضاً :

مُخَايِلٌ قَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ　　مَخَايِلُ الْبَدْرِ فِي الْكَمَالِ
تُرِيكَ بَابَاتُهُ فُنُونًا　　تَرُوقُ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ
فَقَدْ غَدَا وَصْلُهُ يَقِينًا　　أَحْسَنَ مَا كَانَ فِي الْخَيَالِ

وفى كتاب « سلك الدرر » بيتان فى خيال الظل وما قيل فى معناه ، نسبهما إلى الإمام الشافعى وهما :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة　　لمن هو فى علم الحقيقة راقى
شخوصٌ وأشباحٌ تمرّ وتنقضى　　وتفنى جميعاً والمحرّك باقى

السلطان شعبان وخيال الظل

يقال إنّ خيال الظلّ لعبة هندية قديمة . وأقدم ما وصل إليه علمنا عن اشتغال العرب بها أنها كانت من ملاهى القصر بمصر ، مدة الفاطميّين . وكان لسلاطين مصر ولع بخيال الظل ، حتّى حمله السلطان شعبان معه لما حجّ سنة ٧٧٨ ﻫ ، مع ماحمله من الملاهى ، فأنكر الناس عليه ذلك كما فى «درر الفرائد المنظمة» للجزيرىّ .

القاضى الفاضل يصف خيال الظل

أخرج السلطان الملك الناصر صلاح الدين من قصور الفاطميّين من يعانى « خيال الظلّ » ليريه للقاضى الفاضل ، فقام عند الشروع فيه ، فقال له الملك : « إن كان حراماً فما نحضره » . وكان حديث عهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة ،

فما أراد أن يكدّر عليه ، فقعد إلى آخره . فلما انقضى ، قال له الملك : كيف رأيت ذلك ؟ . فقال : رأيت موعظةً عظيمة ، رأيت دولاً تمضى ، ودولا تأتى ، ولما طوى الإزار — طىّ السجلّ للكتب — إذا المحرّك واحدٌ .

الظاهر جقمق يحرق شخوص خيال الظل

ذكر السخاوىّ فى « التبر المسبوك » أن الظاهر جقمق أمر سنة ٨٥٥ هـ بإبطال اللعب بخيال الظلّ ، وإحراق شخوصه ، وكتب على اللاعبين العهود بأن لا يعودوا إليه . ولعلّه فعل ذلك لما كان يبلغه مما يقع فى مجتمعاته من المفاسد .

وورد هذا الخبر فى « ابن إياس » ج٢ ص٣٣ .

إنعام السلطان سليم على مخايل

ذكر ابن إياس فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ . ما نصّه : وفيه أشيع أنّ السلطان سليم[1] شاه — لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى (خيال الظلّ) فلما جلس للفرجة قيل إنّ المخايل صنع صفة باب زويلة ، وصفة السلطان طومان باى لمّا شنق عليه ، وقطع به الحبل مرّتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل — فى تلك الليلة — بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مخمّلاً[2] مذهّباً ، وقال له : « إذا سافرنا إلى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك » .

لعبة علم وتعادير

هى أشهر اللعب ، وأطولها ، وكانوا يلعبونها فى القهاوى ، مقسّمة على سبع ليال فتستغرق الأسبوع ، ولكنهم يختصرونها فى الأعراس بحذف الأزجال والألعاب

(١) لم ينونه — إما تساهلا ، أو لعده من المركبات المزجية والكلام فى إعراب مثله ليس هنا موضع تفصيله .

(٢) القفطان محرف من لفظه التركى (قفتان) وهو فى الفارسية (خفتان) بالخاء المعجمة . والمخمل : ذو الوبر المعروف الآن بالقطيفة .

فيلعبونها فى ليلة واحدة ، وفيها الشخوص نحو ١٦٠ قطعة من إنسان وحيوان وأشجار وأثمار ومبان . وملخصها أن تاجراً من بغداد يسمّى (تَعَادير) يسافر إلى الشام فيصادف بها (عَلَم) وهى فتاة قبطيّة بنت الراهب (مِنَجّى) تسكن مع أبيها وأخيها فى دَيْر ، فيشغف بها حبًّا ويحتال حتّى يجتمع بها ، ويظهر له ولهه ، عارضاً عليها الإسلام ليتزوّج بها ، فتأبى فيشرع فى الاحتيال عليها ، وتأخذ هى فى مكايدته ومعاكسته فيما يحاوله من الانجار ، وتدخله مرّة الدير وتدّعى عليه السرقة فيحكم — بقطع يده — ثمّ يبرأ ، وينشىء بستاناً قبالة الدير تقرّباً إليها ، ثمّ يحرقه من إغاظته منها فيحكم عليه بالجنون ، ويؤخذ إلى البيمارستان فيمكث فيه سبع سنوات حتى يعيى داؤه الأطباء ، فيستحضرون له طبيباً من بغداد اسمه الحكيم « كامل » فيعالجه ويشفى على يديه . وبعد خروجه يعود إلى مغازلة (عَلَم) فيجد أباها مات وينتهى أمرها ، إلى أن تسلم ، ويتزوّج بها ، بعد أن يهدم الدير ، ويبنى لها قصراً مكانه ، وينقل إليه الجهاز قطعة قطعة .

و « للمِقَدّم والرُّخِم » ألاعيب فى هذه اللعبة ، وفيها عرض ما يباع فى مصر من بطيخ على جمل ، وقفص دجاج على رأس امرأة أو على ظهر حمار ، وفيها صورة الدير والقصر والبستان . ويزعم اللاعبون أن التاجر كان اسمه فى اللعب القديم عمر ، فغيره المصريون إلى « تعاديرَ » .

ولهذين الشخصين شأن كبير فى كثير من الألعاب الأخرى . ويكون الجد غالباً من شأن المقدم ، والهزل للرخم . ولذلك يصورونه محدودب الأنف ، معقوف اللحية إلى الأعلى ، عظيم المؤخر .

لعبة التمســـاح

تحتوى على اثنى عشر شخصاً : المِقدّم ، والرِّخم ، والزبرقاش ، ورئيسه ، وزوجته وولده ، و بر بر يان ، ومغر بيان ، والتمساح ، والسمك .

وخلاصة القصّة : أنّ الزّبْرِقاش كان رجلاً فلاحاً غير مفلح ؛ يطردَه أبوه فيعالج الارتزاق بصيد السمك ، ولـكن لجهله بالصناعة يضيع منه سِنّارتان ، فيظهر له المِقدّم و يتناشدان الأزجال ، ثمّ يرشده للمعلم منصور — و يلقّبونه بشيخ المعاش — ليعلمه الصيد ، فيذهب إليه ، و يشرع فى تعليمه ، ثم يصادف الزبرقاش تمساحاً فيبلعه إلى نصفه ، و يظهر الرِّخِم للبحث عنــه لأنّه صاحبه ، فيتناشدان الأزجال ثمّ يُحْضِر له بر بريّين يساومهما على إخراجه من فم التّمساح فيشرعان فى ذلك ، فيلتهم التمساح أحدهما و يبقى الآخر يبكى صاحبه ، وقبل ذلك تـكون زوجة الزبرقاش حضرت بولده ، وأخذت فى البكاء عليه . ثمّ يظهر مَغْر بيّان ، فينهيان المشكل بأن يصيدا التمساح ، و يخرجا الزبرقاس والبربرى ، وتنتهى اللعبة .

ولهذه اللعبة قيمة عند عشاق الخيال والمشتغلين به ، لقدم عهدها وجزالة ما يقال فيها من الأزجال فى تحاور شخوصها .

لعبـــة أبو جعفر

تحتوى على نحو خمسين قطعة أهمّها جميعاً شخصان ؛ شخص طويل وهو أبو جعفر و يلقّب بـ « عَمْرُوس » وآخر قصـير وهو : « الإِبْس » أو (القِبْس) و يلقّب بـ « زُعْرُب » وهما : عدوّان يكيد كلّ واحد منهما للآخر ، وتقع بينهما منازعات إلى أن يقتل الإبس أبا جعفر ، فيصنعون له جنازة ، كما يفعل بمصر ، فيها الـكفّارة والقرّاء .

وللمِقدّم والرِّخِم فيها ألعاب ، وتنشد فيها أزجال جميلة .

لعبـــة الشونى(1)

فيها من الشخوص : الريّس ، وشوِلح ، وهو النوتى . وخمسة ركّاب : فلاح اسمه الكتاتنى ، وابنه النّتن ، وزوجته خمرانة ، وتركىّ يقال له « الجندى » و « بربرى » و « مغربىّ » .

وتبدأ اللعبة بصورة المركب وغناء الملاحين ، وينشد شولح النوتى زجلًا طويلًا ثمّ يحضر الركاب واحداً فواحداً بالشاطىء الآخر يطلبون الركوب ، فيأمر الريّس شولح بحملهمْ ، فيحملهم الواحد بعد الآخر سباحة ، وكلما انتهى من واحد ظهر الآخر على الشاطىء . وتكون لهم مع الريس وشولح محاورات مضحكة يتكلمون فيها بلهجاتهم المعروفة ، فالفلاح وزوجته ينطقان كما ينطق أهل الريف ، والجندى يرتضخ لكنة أعجميّة ، وكذلك البربرىّ والمغربىّ لكلّ منهما لهجة خاصّة ، ثمّ تقع بين الجمع بعد ركوبهم فى المركب محاورات ومنازعات ، وتظهر براعة اللاعبين فى تقلّب تلك اللهجات .

لعبـــة الأولانى

يظهر فيها مركب صغير للصيد ، ويظهر المقدّم ثمّ يأتيه تركىّ يطلب منه خفارة النيل من صيادى السمك لأنهم يسرقون سمكه ، فيعتذر إليه بأنّ الخفارة ليست صناعته ، ولكنّه يحضر له بربريًّا حاذقاً فيها فيتولى الخفارة ثمّ يتفق مع الصيادين ، ويبيح لهم الصيد . فيستاء الجندىّ ، ويغضب منه ، ويبطل الخفارة ويأخذه إلى داره ، وينتهى أمرهما بأن يلعبا « الضامة » فيغلب البربرى سيّده ، فيضرب به من غيظه ، فيمسك البربرى كرسياً على كرسى ، ويضعهما على خوان ، ويرفع الجميع ويضرب بها التركى فيخمد أنفاسه .

---

(1) الشونى : المركب .

لعبة الحجّيّه[1]

تحتوى على نحو ٨٠ قطعة مما يكون فى الحجّ من ضوّية ، وطبّالين ، وجمال ، وتختروانات ، وغير ذلك مما يلزم من الأدوات والشخوص ، ويكون بين المسافرين رجل مصاب بعلة بين فخذيه ، يخرج عليه بدويان فيظنان علته مالاً يخفيه ، اسم أحدهما (عَجْوَهْ) والآخر (بزابيز) . وتقع لهما مضحكات ، ثمّ ينكشف أمره لهما فيطلقانه .

ومن شخوص هذه اللعبة رجل مغربىّ يغنى أزجالا جميلة على الرباب .

لعبة الحمّام

تنكشف عن صورة حمّام على بابه (بلّانة) تنتظر قدوم (عَلَم) للاستحمام ، فيظهر رجل مغربىّ يأخذ فى مغازلتها ، وتقع بينهما منازعات ينشدان فيها الأزجال ثمّ تحضر (عَلَم) فى موكب زفاف فتستحم إستعداداً للزواج ، ثمّ تعود بالموكب وتنتهى اللعبة .

لعبة التياترو

من اللعب المستحدثة فى العهد الأخير ، وفيها شكل بهلوان يلعب على الحبال ، وغير ذلك فى عرس (تَعادير وعَلَم) .

وقد يفردونها باللعب لمن يريد ، والأكثر إدماجها والتى سبقتها فى لعبة (عَلَم) عند إطالتها ولعبها على ليالٍ فى القهاوى .

---

(١) الحجية : السفر إلى الحج .

لعبـــة القهوة

تبدأ بمنظر قهوة يجتمع فيها رجلان : أحدهما — زير نساء اسمه (حردان) . والآخر يميل إلى الأحداث اسمه (قَرَاميط) .

و يشرع قراميط فى مغازلة صبىّ القهوة ، بينما يغازل حِرْدَان خليلة تحضُر له . ثمّ تقع بين الرجلين منازعات ينشدان فيها الأزجال ، و ينتصر كلّ واحد منهما لطريقته ، وتنتهى بأن يهتدى قراميط و يعدل عن طريقته و يأخذ فى مغازلة النساء ، فتوقعه المصادفات فى زوجة صاحبه حردان فيخاللها ، وتلبسه من ثياب زوجها ، فيراها عليه المِقدّم ، و يعرف أنها ثياب حردان ، فينصح له بأن يراقب زوجته . وتنتهى المراقبة بأن يمسكه عندها وهو متنكر ، و يزعم قراميط أنه فرّان أتى لحمل العجين إلى الفرن ، ثمّ يخرج من غير أن يعرفه حردان ، و يستاء هذا من زوجته ، فيحملها إلى أهلها . و بعد ذلك يدعى الثلاثة : المِقَدّم وحردان وقراميط ، إلى دار أبى المرأة لمعرفة سبب خصام الزوجين ، و يشرع كلّ واحد يقصّ قصة غريبة وقعت له ، إلى أن تنتهى النوبة أخيراً إلى قراميط فيقص قصّته مع المرأة دون ذكر الأسماء ، وتنتهى اللعبة بالفراق .

وهذه اللعبة مما يتحاشون لعبها فى الأعراس ، لما فيها من المجون والألفاظ المخلّة بالآداب .

لعبة الشيخ سميسِمْ

وهو رجل من أصحاب الطريق اعتاد نصب خيمته كلّ عام فى مكان ، فتظهر امرأة اسمها « جازية حَرِير » تشترى هذا المكان وتمنع الشيخ من نصب خيمته ، فيسترضيها فلا ترضى إلّا أن يتزوجها ، ويكون لها ولد اسمه (عبد الله) فتدعى أن أباه قد مات ، وتحضر الشهود بذلك فيأبى هو أوّلا لقبحها ، ثمّ يرضى أخيراً —

لأجل المصلحة فيتزوّجها ، ويكون وسيطه فى ذلك المقدم ، والزّخم فراش العرس الذى يقام لهما ، ثم يظهر زوجها أبو عبد الله ، و يشكوهما . ويكون فى هذه اللعبة شيخ حارة ، وجند من الشرطة ، وضابط ترفع إليه الشكوى . وهى مبنيّة على الزجل .

لعبة العجائب

وكانت قديماً تسمّى لعبة (الغرّاف) لأنّ مبناها على رجل صيّاد اسمه (الغرّاف) يصيد السمك من البحر ، و ينشد فى ذلك الأزجال نادباً سوء حظه فى الصيد تارة ، ومثنياً تارة . ثم يظهر له من عجائب البحر ، وأصناف السمك شىء كثير ، ويظهر المقدّم لما كسته فى الصيد ، فيسلّط عليه غلاماً يسرق منه السمك ، إلى أن يصطاد سمكة كبيرة يريد المقدّم مشاركته فيها فيأبى ، فيغرى به جماعة من الأوباش يضربونه حتى يموت ، وتنتهى اللعبة ، ومبناها فى الأكثر على الأزجال .

لعبة حرب السودان

وهى مما أحدث بعد فتح السودان عقب دولة المهدىّ والتعايشىّ . وفيها تمثل وقائع هذا الفتح .

التماثيل والصور عند العرب

صناعة التماثيل من فروع التصوير، ولا ريب في وجودها عند العرب بدليل وجود الأصنام، وما لهج به شعراؤهم من تشبيه النساء بالدُّمَى وهي الصور من العاج وغيره. وقد كانت أصنامهم بالغة في الكثرة مبلغاً لا يستهان به، فكان منها حول الكعبة المعظّمة يوم فتح مكّة ثلاثمائة وستون صنما، على مارواه البخاري وغيره من المؤرخين، عدا ما كان منتشراً في أماكن أخرى من هذا البلد وسائر أماكن الجزيرة. بل بلغ من استهتارهم بعبادتها أنّ كل حي من أحيائهم كان فيه صنم. وغلا كثيرون منهم فاتخذوا لهم أصناماً خاصّة في دورهم.

ذكر ابن الكلبي في كتاب « الأصنام » أنّه كان لأهل كل دار من دور مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسّح به، وإذا قدم من سفره كان أوّل مايصنع إذا دخل منزله أن يتمسّح به أيضاً. ولا يخفى أنّ مثل هذه الكثرة يُستبعد معها أن تكون تلك الأصنام جميعها مجلوبة إليهم، لما في بلادهم من مشاقّ النقل ووعورة المسالك.

ومما ذكروه أنّ بعض هذه الأصنام كانت تماثيل لقوم صالحين، أقيمت لهم في مجالسهم، وسمّيت بأسمائهم، فلمّا طال العهد بأصحابها وتُنوسي أمرها اتخذت آلهة تعبد من دون الله، كما هو الشأن في تماثيل وَدّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، التي وقعت للعرب من أصنام قوم نوح[1]، قال الطبريّ: إنّ سُواعاً كان ابن شيث

---

(١) استبعد بعضهم بقاء أعيانها لطول المدة. وقالوا إنما وقع للعرب أسماؤها فقط فسمت بها أصناماً اتخذتها. والذين قالوا ببقاء أعيانها ذكروا أنها كانت مطمورة فاستخرجها العرب ولا يخفى أن لا وجه لاستبعاد ذلك فقد أخرج المنقبون في عصرنا آثاراً أتى عليها آلاف من السنين

وإن يَغُوث كان ابن سُواع ، وكذلك يعوق ونسر . كلما هلك الأوّل صوِّرت صورته وعظمت لموضعه من الدين ، فلم يزالوا هكذا حتى خلفت الخُلُوف ، وقالوا ما عظّم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها تَرْزُق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة[1] .

وفى كتاب الحجّ من « صحيح البخارىّ » عن ابن عبّاس : [أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم — لمّا قدم — أى دخل مكة — أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة ابراهيم وإسماعيل فى أيديها الأزلام . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قاتلهم الله ، أما والله لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قطّ . فدخل البيت فكبّر فى نواحيه ولم يصلّ]. وقد رواه أيضاً فى غزوة الفتح . وقال ابن حجر فى « فتح البارى » فى شرح هذا الحديث من باب الغزوة المذكورة ما نصّه : « وقع فى حديث جابر عن ابن سعد . وأبى داود أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها . والذى يظهر أنّه محا ما كان من الصور مدهوناً — مثلاً — وأخرج ما كان مخروطا »

وفى معجم البلدان — لياقوت — أنّهم لمّا بنوا قصر غُمدان باليمن ، جعلوا فى أعلاه مجلساً بنوه بالرخام الملوّن ، وصيروا على كل ركن من أركانه تمثال أسد من شَبَه — أى نحاس — كأعظم ما يكون من الأسد ، فكانت الريح إذا هبّت إلى ناحية تمثال من تلك التماثيل ، دخلت من خلفه وخرجت من فيه فيسمع له زئير كزئير السباع .

هذا ما كان من خبر التماثيل عند العرب فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، وفتحوا المدائن ، ومصروا الأمصار ، و بنوا القصور ، وغرسوا الحدائق ، واستبحروا

---

(١) ذكر العلامة الألوسى فى تفسيره «روح المعانى» فى رواية عن بعضهم أن وداً كان على صورة رجل ، وسواعا كان على صورة امرأة ، ويغوث كان على صورة أسد ، ويعوق كان على صورة فرس ، ونسراً كان على صورة نسر . ثم قال : « وهو مناف لما تقدم من أنهم كانوا على صور أناس صالحين وهو الأصح » .

فى المدنية ، نشأ بينهم اتخاذ التماثيل للزينة فى القصور ، والبرك ؛ وتفننوا فى عملها من الحجر والرخام والجص والذهب والفضة وغيرها . . ومنها تمثال الرجل النافخ فى البوق فى إحدى جنان اشبيلية .

وجاء فى حرف الدال من « معجم البلدان » لياقوت : « دار الشجرة دار بالدار المعظمة الخليفية ببغداد من أبنية المقتدر بالله ، وكانت داراً فسيحة ذات بساتين مونقة وإنما سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة ، فى وسط بركة كبيرة مدورة ، أمام إيوانها و بين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر ، على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير ؛ وفى جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد — فيظَنُّ أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد » .

ومن كل ذلك ترى أنهم لم يكتفوا بتصوير التماثيل فحسب ، بل احتالوا على تحريكها بقوة الماء أو اللوالب المدبرة بصنوف الحيل ، وجعلوا على أفواه ما صوروه الصفارات تدفع فيها الريح أو الماء ، فتحا كى صوت ذى الروح .

وقد طالت أيديهم فى غير ذلك من الصنائع كالبناء والنحت والنجر والنسخ كما أحكموا صنع الآلات الفلكية وغيرها ، واحتالوا على جر الأثقال ورفع الماء وتسخيره فى إدارة الساعات ، والدواليب ، وما شا كلها . وكذلك أتقنوا صنع آلات القتال ؛ كالمكاحل ، والمدافع ، وقوارير النفط والدبابات ، والكباش الناطحة للحصون .

لعبة البنات

وكان للعرب تماثيل خاصّة بصغارهم يسمّونها بالجوارى ، والبنات . كما فى قول امرئ القيس :

عَهِدَتنِي ناشئاً ذا غُرّة رَجِلَ الجُمّة ، ذا بطن أَقَبْ
أتبعُ الوِلْدانَ أرخِي مِئزرى ابن عَشرٍ ، ذا قَرْيط من ذهبْ
وهى إذ ذاك عليها مِئزرٌ ولها بيتُ جَـوارٍ من لُعَبْ

وفى القاموس : « البنات التماثيل الصغار يلعب بها » .

والعامة فى مصر الآن تسمى أمثال هذه التماثيل بالعرايس — بالياء — لأنهم لا يهمزون مثله . وواحدتها عروسة .

وجاء فى « ربيع الأبرار » للزمخشرىّ ، فى حديث عائشة رضى الله عنها ، أنّها قالت :

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم من غزوة « تبوك » وفى سهوتى ستر ، فهبّت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لى . فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتى ، ورأى بينهنّ فرساً له جناحان ؛ فقال : ماذا أرى وسطهنّ ؟ .

قلت : فرس . قال : وما هذا الذى عليه ؟ . قلت : جناحان ، قال : فرس له جناحان ؟ . قلت : أما سمعت أنّ لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ . فضحك حتى بدت نواجذه .

ويؤخذ من هذا الحديث عدم استنكار ما اتّخذ من التماثيل لغير العبادة ، أى للهو واللعب ، وإن شدّد بعض الفقهاء فحرّمها على الصغار أيضاً ، كما فعل ابن العماد فى آداب الأكل فقال استطراداً :

قال الحليمىّ وامنع طفلةً لُعَباً وهو الصحيح فقم بالمنع واكتفل
أبو سعيد له التجويز قد نسبوا بعلّة قد وهت عن رتبة العلل

لعبة الكُرّج

ومن تماثيل اللهو واللعب « الكُرّج » بضمّ الكاف وفتح الرّاء المشدّدة — معرّب كُرّهْ بالفارسيّة وهو تمثال مُهر من خشب ، يلعب به . قال جرير :

لبستُ سلاحِى والفرزدقُ لُعْبَةٌ   عليها وشاحا كُرّجٍ وجلاجلُهْ

وقال :

أمسى الفرزدق فِي جلاجل كرّج   بعد الأُخَيْطِل ضَرّة لجرير

وفى « الروض الأُنف » فى ذِكْرِ « مخنّثِ المدينة » : « ربّما لعب بعضهم بالكُرّج » وفى « مراسيل أبِى داود » أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه رأى لاعباً يلعب بالكُرّج ، فقال : « لولا أنّى رأيت هذا يُلعب به على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلّم لنفيته من المدينة » . قلنا لأنّ اللعب بمثله غير لائق بالرّجال ؛ ومنه قيل — للمخنّث كُرّجّى .

وذكر ابن خلدون ، فى فصل صناعة الغناء من مقدّمته أنّ الكُرّج جعل أيام بنى العباس من آلات الرقص . ونصّ عبارته : « وأمعنوا فى اللهو واللعب ، واتّخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنّم بها عليه ، وجعل صنفاً وحده . واتّخذت آلات أُخرى للرّقص — تسمّى بالكرّج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلّقة بأطراف أقبية تلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكررن ويفررن ويتثاقفن ، وأمثال ذلك من اللعب المعدّة للولائم والأعراس ، وأيّام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو » .

سوق للعب الأطفال

وفى باب أحكام الحسبة من « الأحكام السلطانية » للماوردى ، ما يدلّ على اتّخاذهم سوقاً خاصّة بلعب الأطفال . فقد جاء فيه ما نصّه : « وأمّا اللعب فليس

يقصد بها المعاصى ، وإنّما يقصد بها إلف البنات لتربية الأولاد ، وفيها وجه من وجوه التدبير ، تقارنه معصية بتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام ، فللتمكين منها وجه ، وللمنع منها وجه ، وبحسب ما تقتضيه شواهد الأحوال يكون إنكاره وإقراره . وقد دخل النبيّ عليه الصلاة والسلام على عائشة رضى الله عنها ، وهى تلعب بالبنات ، فأقرّها ولم ينكر عليها .

وُحكى أنّ أبا سعيد الأصطخرى من أصحاب الشافعى تقلد حسبة بغداد فى أيام المقتدر ، فأزال سوق الداذى[1] ومنع منها وقال : « لا يصلح إلا للنبيذ المحرم » وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها وقال : « قد كانت عائشة رضى الله عنها تلعب بالبنات بمشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكره ، وليس ما ذكر من اللعب بالبعيد من الاجتهاد ، وأما سوق الداذى فالأغلب من حاله أنه لا يستعمل إلا فى النبيذ ، وقد يجوز أن يستعمل نادراً فى الدواء ، وهو بعيد ، فبيعه عند من يرى تحريمه جائز لجواز استعماله فى غيره ، ومكروه اعتباراً بالأغلب من حاله . وليس منع أبى سعيد منه لتحريم بيعه عنده ، وإنما منع من المظاهرة بإفراد سوقه والمجاهرة ببيعه » إلى آخر ما ذكره .

لعبة الدوباركة

وذكر التنوخىّ فى « نشوار المحاضرة » أن أهل بغداد كانت لهم لعبة على قدر الصبيان يسمونها (الدوباركة) وهى كلمة أعجمية ، وكانوا يحلون هذه اللعبة فى سطوحهم ليالى النيروز المعتضدى ، ويلعبون بها ويخرجونها فى زى حسن من فاخر

---

(١) الداذى : شراب الفساق وهو الخمر ، وهو على صيغة المنسوب وليس بنسب ، كذا فى القاموس وشرحه . وفى اللسان : الداذى نبت وقيل هو شىء له عنقود مستطيل وحبه على شكل حب الشعير يوضع منه مقدار رطل فى الفرق فتعبق رائحته ويجود إسكاره . وهى عبارة القاموس وشرحه أيضاً ، غير أنها وردت فيهما فى تفسير (الذاذى) بذالين معجمتين . وقال الشارح بأن الحذاق حكموا باتحاده مع الذى قبله ولا يخفى أن هذا النبت هو المراد فى عبارة الماوردى

الثياب ، وحلى يحلونها بها كما يفعل بالعرائس ، وتخفق بين يديها الطبول والزمور ، وتشعل النيران . فقالت عائدة بنت محمد الجهنية ، وكانت كاتبة فاضلة ، تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى لما ولى الوزارة ، وتعيبه بقصر قامته :

شاورنى الكرخى لما بدا النيروز والسن له ضاحكه
فقال : ما نهدى لسلطاننا من خيرما الكف له مالكه؟
قلت له : كل الهدايا سوى مشورتى ضائعة هالكه
أهد له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دوباركه

تمثال اللعين أو النّطّار

ومما يشبه التماثيل ما كانوا يقيمونه فى المزارع على هيئة الرجل لتفزيع الطير والوحش ، ويسمونه باللعين ، وبالرجل اللعين ، وبالخيال ، والضَّبَغْطَرَى ، والجدار ، والنُّطّار . قال الشمّاخ :

ذعرت به القَطَا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللّعين

وقال آخر :

أخ لا أخا لى غيره غير أننى كراعى الخيال يستطيف بلا فكر

ولعلّ هذا النوع هو المقصود بقول القائل ، وقد أورده السيرافىّ فى شرحه لكتاب سيبويه :

تعالَ نصنع رجلاً مثل عَدِى نصنعه من الرقاع والعِصِى

وحكى ابن إياس ، فى حوادث سنة ٨٩١ هـ ، أن السلطان أمر بقتل شخص فأنزلوه من القلعة مسمّراً على لعبة من الخشب غريبة الهيئة تُجرّ بالعجل ، ولها حركات تدور بها .

غير أنّه لم يفصح عنها — أ كانت من نوع التماثيل أم من غيرها .

وحكى أيضاً أنّ أحد ملوك اليمن أهدى للسلطان الكامل الأيوبى شمعداناً[١] من نحاس من عمل — الموقتين — إذا كان الفجر خرج منه شخص من نحاس لطيف الخلقة وصفّر كأنه ينبىء السلطان بالفجر ويحييّه تحية الصباح وقال : إنّه بقى فى الخزائن إلى أيام الناصر محمّد بن قلاوون ثمّ فقد .

صنم من عجوة جاع فأكله

من أغرب ما يذكر عن العرب فى الجاهلية أنهم كانوا يعملون الأصنام من كل شىء حتّى إنّ بعضهم عمل صنمه من عجوة ثمّ جاع فأكله .

ومثله ما ذكره البيرونى فى « الآثار الباقية » عن صنم من « حيس »[٢] اتخذه بنوحنيفة فى الجاهلية قبل مسيلمة ، فعبدوه دهراً ، ثم أصابتهم مجاعة شديدة فأكلوه ، ولم يبق هناك أثر لما صنعوه .

لعبة الدرقلة للصبيان

ويقال لها الدركلة أيضاً . وهى لعبة يلعب بها الصبيان ، وقيل هى لعبة للحبش كما جاء فى المخصص وفى القاموس : الدركلة كشرذمة — لعبة للعجم ، أو ضرب من الرقص ، وهى حبشية .

وفى اللسان : الدركلة لعبة يلعب بها الصبيان ، وقيل هى للعجم . قال ابن دريد: أحسبها حبشية معربة . وقال أبو عمرو : إنها ضرب من الرقص . وذكر الأزهرى : قرأت بخط شمر قال : قرىء على أبى عبيد وأنا شاهد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر على أصحاب الدركلة وقال : جدوا يابنى أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة .

---

(١) يرادف فى العربية : المنارة والمنائة .
(٢) الحيس بفتح فسكون : طعام يعمل من التمر والسمن والأقط أو الدقيق بدل الأقط .

لعبة دِحِنْدِح لصبيان العرب

لعبة للصبيان يجتمعون لها فيقولونها ، فمن أخطأ قام على — رجل واحدة — وحجل سبع مرات .

وحكى الفراء : تقول العرب : « دحامحا دعها معها . وذكر الأزهرى فى الخماسى : دِحِنْدح دويبة . وفى كتاب « ما يعول عليه » : « هوان دِحندح » يقال أهون من دحندح . قال حمزة : إن العرب تقول ذلك . فإذا — سئلوا ما هو ؟ قالوا . لا شيء !

وقال بعض أهل اللغة : إنها من لعب صبيان العرب ، تجتمع لها — فيقولونها فمن أخطأ — قام على رجل ، وحجل على إحدى رجليه سبع مرات .

لعبة الزّدو فردا أو زوجا

الزدو — كالسدو — فى اللسان وفى التهذيب : لغة فى السدو ، وهو لعب من الصبيان بالجوز ، والمزادة موضع ذلك ، والغالب عليه الزاى ، يسدونه فى الحفيرة ، وزاد الصبى الجوز و بالجوز يزدو زدوا ، أى لعب ورمى به فى الحفيرة . وتلك الحفيرة هى المزداة . وفى مادة (سدى) منه : سدو الصبيان بالجوز ، واستداؤهم لعبهم به . وسدا الصبى بالجوزة رماها من علو إلى أسفل .

وجاء فى شرح القاموس ، ونقلا عن التهذيب : الزدو لغة صبيانية ، كما قالوا : للأسد — (أزد) . وللسداد : زداد

وقال ابن دريد : تخاسى الرجلان أى : لعبا بالزوج والفرد .

و يقال : خسا وزكا ، أى فرد وزوج . قال الكميت :

مكارم لا تحصى إذا نحن لم نقل خساً وزكاً فيما نعد خلالها

وفى الحديث : ما أدرى كم حدثنى أبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخساً أم زكاً — يعنى فرداً أو زوجاً .

لعبة عظم وضاح للصبية

واسمها فى الأصل لعبة القجقجة ، ثم اطلق عليها اسم (عظمُ وَضاح) لأن القاف والجيم لا يجتمعان فِى كلمة عربيّة أصيلة — كما جاء فى القاموس . وفى مادة (وضح) أن لعبة (عظم وضاح) لعبة للصبية — إذ يأخذون عظماً أبيض فيرمونه بالليل ويتفرقون فى طلبه . وفى حديث المبعث أن النبي صلى الله عليه وسلم — كان يلعب وهو صغير — مع الغلمان بعظم وضّاح ، وهى لعبة لصبيان الأعراب ، يعمدون إلى عظم أبيض فيرمونه فى ظلمة الليل ، ثم يتفرقون فى طلبه ، فمن وجده منهم فله القمر . قال : وسمعت الصبيان يصغرونه فيقولون عظيم وضاح . وأنشدنى بعضهم :

عظيم وضاح ضحنّ الليله لا تضحن بعدها من ليله

قوله : ضحن أمر من يضح بتثقيل النون المؤكدة ومعناه : اظهرن ، كما تقول من الوصل صلنّ .

وذكر ابن قتيبة فى تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بينما كان يلعب وهو صغير مع الغلمان بعظم وضاح ، مر عليه يهودى فدحاه ، فقال لتقتلن صناديد هذه القرية .

وقال : وعظم وضاح لعبة للصبيان بالليل ، وهو أن يأخدوا عظماً أبيض شديد البياض — يرمى به واحد من الفريقين — فمن وجده من أحدهما ركب أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذى يجدونه فيه إلى الموضع الذى رموا منه .

لعبة اللبخة (التحطيبْ)

هذه اللعبة تسمى عند عامة مصر بالتحطيب ، وعند بعض العرب (اللبخة) ومما قاله الشيخ الشعرانى فى طبقاته الكبرى المعروفة بلواقح الأنوار ، فى ترجمة عثمان

الحطاب المتوفى سنة نيف وثمانى مئة ، ما نصه : وكان شجاعاً يلعب اللبخة ـ فيخرج له عشرة من « الشطار » ويهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها و يرد ضرب الجميع فلا تصيبه واحدة ، هكذا أخبر عن نفسه فى صباه .

ولعل (الحطاب) لقب بذلك لشهرته بلعبة التحطيب . أو لأنه كان يدأب فى خدمة فقراء زاويته من إعداد للطعام وخياطة للثياب وغيرها ، أو فى جمع الحطب من البساتين ـــ ونرجح الأول دون سائر ما كان يتولاه فيشتهر به .

رمانة من ذهب أحمر

جاء فى المختار السائغ من ديوان ابن الصائغ الطبيب أن أبا الحسن بن بشر بن عبدون الـكاتب أخبره أنه رأى عند الأمير غازى بن أرتق[1] ــ تمثال رمانة أهدى إليه ، وهى من ذهب أحمر ، وميناء خضراء ، مرصعة باللؤلؤ ، وفى باطنها حبّ بلخش ، ولها أربعة أبواب تفتح عن بيوت مملوءة طيباً ، والبيوت وأنواعها خفية عمن يراها ، وسأله وصفها فقال :

وخود تحيي الشرب بعد كؤوسهم   برمانة من عسـجد وزبرجد
مرصـعة باللؤلؤ الرطب ظـاهراً   وباطنهـا حب البلخش المنضد
وتخفى بيوتـاً أربعـاً[2] لا تنالهـا   لطـافة حس العـالم المتوقد
إذا فتحت أبوابهـا ظهرت بهـا   ودائع طيب فى مخازن عسـجد
وكانت كأفلاك السماء نجومها   ترى فى بروج لا تبين لمهتـد

---

(١) اسمه : إيل غازى ولقبه نجم الدين ، وهو الذى ملك ماردين سنة إحدى وخمسمائة ذكره ابن خلكان فى ترجمة أبيه أرتق وترجمة سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » . وقال : توفى سنة ٥١٦ أو ٥١٥ هـ بظاهرميا فارقين ، ثم حمل إليها ودفن بها . وفى « الـكامل » لابن الأثير . أنه توفى بها سنة ٥١٦ هـ .

(٢) الوجه : (أربعة) وجاء به (أربعاً) هكذا للوزن .

تمثال أبي الهيجاء السّمين

وذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٥٩٣ ﻫ من «مرآة الزمان» .وأبو شامة فى «الذيل على الروضتين » — قدوم الأمير حسام الدين أبى الهيجا السمين[1] إلى بغداد ، واحتفال الخليفة بلقائه ، فحكيا عنه أنه كان ذا رأس صغير ، وبطن كبير جدا يبلغ رقبة بغلته وهو راكبها ، وأنه لما اجتاز بمحلة الحربية رآه كواز فضحك من هيئته وعمل فى ساعته كوزاً من طين على صورته ، وعمل أهل بغداد بعده كيزاناً على هذه الصورة وسموها أبا الهيجاء السمين . وكانت وفاة هذا الأمير سنة ٥٩٤ ﻫ .

ساعة الرشيد المائية

أهدى الخليفة العباسى هرون الرشيد إلى شرلمان ملك فرنسا ساعة مائية متقنة الصنعة إلى الغاية ، تقسم الوقت إلى اثنتى عشرة ساعة ، ولها كرات صغيرة من الصفر — أى النحاس — كلما انتهت ساعة سقط منها بعدد تلك الساعة على صنج قد وضع تحتها ، فيرن . وذكر بعضهم أنه كان فيها فرسان بعدد تلك الكرات يخرجون من اثنتى عشرة كرة . وإنها لما وصلت إلى فرنسا أكبر الفرنسيس أمرها وكان لها عندهم موقع إعجاب عظيم .

وفى الكلام على مالطة من «معجم البلدان» لياقوت . «وآثار البلاد» للقزوينى أن أحد المهندسين صنع لصاحبها القائد يحيى صورة تعرف منها أوقات النهار بالصنج فقال فيها أحد الشعراء : جارية ترمى الصنج . وأجاز آخر هذا المصراع بقوله :

. . . . . بها النفوس تبتهج
كأن من أحكمها إلى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سرّ البروج والدّرج

(١) ذكر ابن الأثير فى «الكامل» قدومه إلى بغداد وقال أنه كان أميراً كبيراً من أمراء مصر فارق بنى أيوب وقدم بغداد لخدمة الخليفة . وذكر أنه كان كثير السمن ولكنه لم يتعرض لعمل الكيزان على صورته .

جوارٍ من كافور وعنبر

فى « أخبار مصر » لابن مَيسر أن الأفضل ابن أمير الجيوش وزير الفاطميين « كان له مجلس يجلس فيه للشرب ، فيه صور ثمانى جوارٍ متقابلات : أربع منهنّ بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، قيام فى المجلس ، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى ، وبأيديهن أحسن الجواهر — فإذا دخل من باب المجلس ، استوين قائمات»

والظاهر أن العتبة كانت متحركة وتحتها أسلاك متصلة بالجوارى ، فإذا وطئت جذبت رؤوسهن بحيلة مدبرة وأبقتها منكسة هنيهة ريثما يصل الرجل إلى صدر المجلس .

امرأة من جريد وقراطيس

لما زاد ظلم الحاكم بأمر الله الفاطمى وكان سببا لإحراق مصر[1] عمل أهلها تمثالاً لامرأة من جريد وقراطيس بخف وإزار ، ونصبوه فى طريق الحاكم ، بعد أن وضعوا فى يد المرأة رقعة كأنها ظلامة ، فلما رآها الحاكم غضب لأنه كان قد منع النساء من الخروج فى الطرق ، وأخذ الورقة منها فإذا فيها ما استعظمه من السب ، فأمر بالمرأة أن تؤخذ فوجدوها من جريد ، وعلم أنها من عمل أهل مصر — فاشتد غضبه وأمر عبيده بإحراق المدينة فأحرقوا ثلثها ونهبوا نصفها .

ذكر ابن الأثير فى الكامل فى كلامه على قتل الحاكم بأمر الله وسيرته أنه وقعت قصة مشابهة لها فى مدة أبيه العزيز ، ونص عبارته :

قيل إنه ولى عيسى بن نسطورس النصرانىّ كتابته ، واستناب بالشام يهوديًا

---

(١) المراد بمصر الفسطاط ، كثرت تسميتها بذلك بعد بناء القاهرة ، وكانت منفصلة عنها ، فلما اتصلت بها وصارت قسما من أقسامها عبروا عنها بمصر العتيقة كما تسميها العامة الآن . كما عبر السخاوى عنها فى الضوء اللامع .

اسمه منشا ، فاعتز بهما النصارى واليهود ، وآذوا المسلمين ، فعمد أهل مصر وكتبوا قصّة جعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس ، وكتبوا فيها (بالذى أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذلّ المسلمين بك إلّا كشفت ظلامتى) . وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ، فلمّا رآها أمر بأخذها ، فلمّا قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك ، فقبض عليهما وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهودى شيئاً كثيراً .

تماثيل من الحلوى

كان من عادة الفاطميين فى مصر الإكثار من عمل الحلوى فى الأسمطة على هيئة تماثيل . ذكر ناصر خسرو — فى رحلته (سفر نامه) لمناسبة المواسم والأعياد واتخاذها على أشكال شتى ، أنه لما توصّل إلى دخول الإيوان المقام به سماط عيد الفطر بمصر سنة ٤٤٠ هـ — شاهد عليه تمثال شجرة من السكّر تشبه شجر الأترجّ بأغصانها وأوراقها وثمارها .

وفى «خطط المقريزىّ» فى ذكر سماط عيد الفطر نقلا عن « التاريخ الكبير » للمسبّحىّ مانصّه : وفى آخر يوم منه — يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة — حمل يانس الصقلبىّ ، صاحب الشرطة السفلى ، السماط وقصور السكّر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل حلوى ، وحمل أيضاً علىّ بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر .

وفى « طبقات الشافعية » للسبكىّ فى ترجمة أبى على الروذبارىّ المتوفى سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وكان من أئمة الصوفية ، أنّه اشترى مرة أحمالا من السكر الأبيض ، ودعا جماعة من صناع الحلوى فعملوا له من السكر جداراً عليه شرفات ومحاريب على أعمدة ، ونقشوها كلها من سكر . ثم دعا الصوفية فهدموها وكسروها وانتهبوها .

وقال ابن جبير فى رحلته فى وصف أسواق مكّة : « وأما الحلوى فتُصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ؛ وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تتّصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها — قد صورت منها تصاوير إنسانيّة ، وفاكهيّة ، وجليت فى منصّات كأنها العرائس ، ونضّدت بسائر أنواعها المنضّدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً ، فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار » .

سمك يسبح فى عسل

وقال المتنبي وقد أهدى إليه بعضهم تماثيل سمك من سكر ولوز تسبح فى لجّة عسل :

أهلاً وسهلاً بما بعثت به   إيهاً أبا قاسمٍ وبالرُّسلِ
هديّةٌ ما رأيت مهديها   إلّا رأيتُ العبادَ فى رجُل
أقلُّ مافى أقلِّها سمكٌ   يَلعبُ فى بِرْكةٍ من العَسَلِ

تمثال فيل من حلاوة

وقال إبراهيم المعمار ، المعروف بابن غلام النوريّ ، فى تمثال فيل من الحلوى :

قد صوّروا الفيل الكبيـــرَ حلاوةً   وله طُلاوهْ
ما قولكم فى معشرٍ   الفيلُ عنـــدهمُ حلاوهْ

حلوى المشاش — من العسل

وأنشد الثعالبى فى اليتيمة للمأمونى فى مشاش الخليفة :

جمعتَ حباب الكأس حتى لحقته   فكونت منه فى الإناء بدورَا

فإن لَمَسْتِهُ الـكاْس لمساً لـكفّه رأيتَ الذى نظّمتَ منه نثيرًا

وأصل (المشاش) بفتح أوّله لفظ فارسى يطلق على حلوى ، تعقد من العسل .

ورأيت فى كتاب « كنز الفوائد فى تنويع الموائد » أنّه نوع من الحلوى يُجعل مادةً لعمل التماثيل ، وخلاصة ما ذكره أنّه جلّاب — نوع من السكر — يعقد على النار ، ويضرب بالمهراس حتّى يفور ، فيقلب على رخامة ويترك ساعة . ثم يلون بالأصباغ . قال : « وهذا الذى تعمل منه جميع التّماثيل المختلفة » .

تماثيل القصور أسد يرمى الماء

قال الوزير أبو جعفر الوقشى ، وقد شرب على صهريج فاختنق الأسد الذى يرمى الماء . ونفخ فيه رجل أبخر فجرى :

ليثٌ بديعُ الشكل لامثلَ لَهْ صِيغتْ من الماء له سِلْسِلَهْ
يقذفُ بالمـاء على جَنبه كأنّه عاف الذى قَبّلَهْ

ولعمرى لقد أبدع الوزير فى الوصف فجعل اشمئزاز الأسد من تقبيل الرجل الأبخر علّة لرميه بالمـاء على جنبه ، كما يعاف المرء الشىء فيلوى وجهه عنه ، ولولا اختناقه بشىء دخل فى فيه مع المـاء ما تهيأ للوزير وصف هذا الشكل بمثل هذا التعليل المونق .

وخرج بن قزمان شيخ الصناعة الزجلية بالأندلس إلى متنزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصبّ المـاء على صفائح من الحجر . فقال على طريقتهم الملحونة « فى الزجل » أى بتسكين أواخر الـكلم :

وعريش قد قام على دكّان بحـــــال[1] رواق

---

(١) يريد مثل الرواق وكذلك قوله بحال إنسان أى مثل إنسان به الفواق وهو شخوص الريح من الصدر .

وأسد قد ابتلع ثعبانٌ من غلظ ســـاق
وفتح فمو بحال إنسان به الفـــواق
وانطلق من ثمّ على الصفاح وألقى الصـــياح

وشرب يوماً أبو الحسن ابن نزار مع أبي جعفر ابن سعيد ، في جنة بزاوية غرناطة ، وفيها صهريج ماء قد أحدق به شجر النارنج والليمون ، وعليه أنبوب ماء تتحرّك به صورة جارية راقصة بسيوف ، و به أيضاً رخام يجعل الماء على صورة خباء . فقال أبو جعفر يصف الراقصة :

وراقصةٍ ليست تحرّكُ دون أن يُحرِّكَها سيفٌ من الماء مُصْلَتُ
يدور بها كَرْهاً فَتَنْضى صوارماً عليه ، فلا تَنْبَي ، ولا هو يُبْهَتُ
إذا هي دارتْ سرعةً خِلْتَ أنّها إلى كلِّ وجهٍ في الرِّياض تَلَفَّتُ

وقال ابن نزار في خباء المـاء :

رأيتُ خِباءَ الماء ترسل ماءها فنازَعها هَبُّ الرِّياح رذاذهـا
تطاوعُه طورًا ، وتعصيه تارةً كراقصة حلّتْ وضمّتْ قِباءها
وقد قابلَتْ خيرَ الأنام فلم تزل لديه من العلياء تُبْدِي حَياءها

ممالكة في حمام سيف الدين بدمشق

ومن الحمامات المصوّرة حمام سيف الدين بدمشق ، وفيه يقول عمر بن مسعود الحلبيّ الشهير بالمحار[1] من قصيدة :

وخطّ فيها كلّ شخص ، إذا لا حظتــه تحسِــبُه ينطقُ
ومثّــل الأشجــار في لونهــا ولينهــا ، لو أنهــا تورق
أطيارها مِن فوق أغصانها بودهــا تنطــق أو تزعــق

(١) ديوانه بالخزانة البلدية بالأسكندرية .

وهيئـــة الملك وسلطـانه وجيشه من حوله يحدق
هـــذا بسيف وله عبســـة وذا بقوس وبه يعلق

حكم التصاوير فى الحمام

ووقفت فى كتاب « حدائق التمام فى الـكلام على ما يتعلق بالحمام » لشهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الخيمى الـكوكبانى ، من علماء القرن الثانى عشر ، على فصل يدل على أن تصوير جدران الحمامات لم يكن بالنادر المستغرب بينهم بل كان كثير الشيوع ، حتى لهج بإنكاره فريق من العلماء ، وهو رأى المؤلف أيضاً . ونص ما فيه : « قال الحـكماء : وينبغى أن يكون مسلخ الحمام أى مخلعه الذى تخلع فيه الثياب عن الأبدان ، لطيف الصنعة ، واسع الفضاء ، وأن تـكون فيه التصاوير من الصور اللطيفة الأنيقة كالأشجار والأزهار والأشكال الحسنة والعجائب من الأسلحة ونحوها لأجل تحصيل الراحة بالنظر فيها عند الاتـكاء ، وقد حلل الحمام القوى ، لأن المسلخ إذا كان كذلك كان موافقاً للقوى الثلاث ، لأن التحليل واقع فيها بما فيه مما ذكر ، فالأشجار ونحوها للنفسية ، والأسلخة للحيوانية ، والثمار للطبيعية . فلا شك فى أن الحمام آخذ من القوى محلل بلالبس ، خصوصاً إذا طال المقام فيه ، والنظر فى الأشياء المذكورة منعش مقو ، هكذا قال الحـكماء . والذى أقوله إنهم لو أرادوا بالأشـكال الحسنة صور الحيوانات الممثلة فى جدران الحمام ، فذلك من المنـكرات التى تجب إزالتها عند العلماء وأهل الورع . قال الإمام أحمد بن حنبل : إن الإنسان إذا دخل الحمام ورأى فيه صورة فينبغى أن يحكها فإن لم يقدر خرج » .

وقال الإمام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب « إحياء علوم الدين » عند ذكر منـكرات الحمام ما نصه : « منها الصور على باب الحمام أو داخل الحمام فذلك منـكر تجب إزالته على كل من يدخله إن قدر عليها ، فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة ، فليعدل إلى حمام آخر فإن مشاهدة المنـكر غير

جائزة ، ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها . ولا يمنع من تصوير الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان » .

وقال الإمام يحيى بن حمزة رضى الله عنه فى كتاب « التصفية » عند ذكر الخمس الصور من منكرات الحمام ما لفظه : « الصورة الأولى ما يحصل من صور الحيوانات التى على جدر الحمامات و بيوتها الداخلة والخارجة ، فإن ما هذا حاله يجب تغييره ، و يكفى فى تغييرها قلع رؤوسها وفصلها وتشويه وجوهها بحيث تبطل صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش ، فإنها مباحة ، فإن لم يمكن تغييرها فإنه يعدل إلى حمام آخر فإن مشاهدة المنكر غير جائزة » .

خزانة الجواهر الفاطمية

ذكر المقريزىّ أن خزانة الجواهر والطرائف والطيب الفاطمية كانت قائمة على أرجل تصور الوحوش والسباع ، وكانت التماثيل المصنوعة من العنبر فيها كثيرة تبلغ اثنين وعشرين ألف قطعة ، أقلّ تمثال منها وزنه اثنا عشر مُنًّا ، ومنها تمثال لطاووس من الذهب المرصّع بنفيس الجوهر ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وريشه من الميناء المجرى بالذهب على ألوان ريش الطواويس ، ومنها ديك من الذهب ذو عرف كبير مفروق متخذ من الياقوت كأكبر ما يكون من أعراف الديكة ، وغزال مرصع بنفيس الجوهر ذو بطن أبيض منظوم بالدرّ الرائع ، كما ذكر تمثال البستان المصنوع من الفضّة المذهبة ، والمتخذ طينه من الندّ ، وثمر شجره من العنبر وغيره .

الأصنام والدّمى

وقد اختلفوا فى تعريف الأصنام ، فقالوا : ما كان من حجارة تعبد فهى الأنصاب ، فإذا كانت تماثيل فهى الأصنام والأوثان . وقيل : المعمول من خشب

أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن . وقيل : لا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه ، وقيل : الوثن الصنم الصغير ، أو كل ماله جثّة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة كصورة الآدمىّ تعمل وتنصب فتعبد . والصنم الصورة بلا جثة . وقيل غير ذلك .

وقالوا فى تعريف الدُّمية أنّها الصّنم . وقيل : الصورة من الرخام أو المنقّشة من العاج ونحوه . وقيل بل كل صورة من غير تقييد . وقد لهجت العرب بتشبيه النساء بها لأنّها يُتنوّق فى صنعها ويبالغ فى تحسينها ، وفى شرح التبريزى على الحماسة نقلاً عن أبى العلاء أنّها تجيل لما ذلك لأنّها كانت فى أوّل الأمر تصور بالحمرة فكأنّها أخذت عن الدم . وقالوا : البَعيم كأمير : التمثال من الخشب أو الدميّة من الصّمغ .

وفى « الرّوض الأُنف » للسهيلىّ ، فى ذكر (القليس) — وهو بيت للعبادة بصنعاء — أنه كان به صنمان من خشب : أحدهما تمثال رجل طوله ستون ذراعاً ، والآخر تمثال امرأة زعموا أنّها امرأته ، وكانوا ينسبون إليهما كل ما يصيبهم .

تماثيل على قبر حاتم طىّ

وفى « مروج الذهب » للمسعودىّ ما محصّله أن قبر حاتم طيّء — كان عن يمينه أربع جوارٍ من حجارة ، وعن يساره أربع ، كلهنّ صواحب شعر منشور ، ومحتجرات على قبره كالنائحات عليه ، لم يُر مثل بياض أجسامهنّ وجمال وجوههنّ — مثّلتهنّ الجن على قبره — ولم يكنّ قبل ذلك ، فهنّ بالنهار كما وصفنا ، فإذا هدأت العيون ، ارتفعت أصوات الجنّ بالنّياحة عليه ، فإذا طلع الفجر سكتت ، وربّما مرّ المارّ فيراهنّ فيفتتن بهنّ فإذا دنا منهنّ وجدهنّ أحجاراً .

قلنا : نسبته عمل هـذه التماثيل للجنّ مبنيّة على ما كانت العرب تزعم ،

فقد كانت إذا رأت شيئاً مستحسناً ، أو هالها عمله ، نسبته للجنّ . ورحم الله أبا العلاء حيث يقول :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدُّوهُ من صنعة الجنّ

التمثال الراقص

ومن بديع التماثيل المقرونة بحيلة صناعيّة ، تمثال جارية لها شعر طويل تدور على لولب ، وإحدى رجليها مرفوعة ، وفى يدها طاقة ريحان ، فإذا وقفت حذاء إنسان شرب ، ثم ينقرها فتدور . رآها المتنبّى فى مجلس بدر بن عمّار فقال مرتجلاً :

وجاريةٍ شَعرُها شطرُها ... مُحكَّمةٌ نافذٌ أمرها
تدورُ على يدها طاقةٌ ... تضمَّنها مُكْرَهاً شِبرها
فإن أسكرتْنا ففى جهلها ... بما فعلتْه بنا عُذرُها

وقال أيضاً فيها :

جاريةٌ ما لجسمها روحُ ... فى القلب من حبّها تباريحُ
فى يدها طاقةٌ تشير بها ... لكل طيبٍ من طيبها ريح
سأشربُ الكأسَ عن إشارتها ... ودمع عينى فى الخدّ مسفوح

وقال أيضاً ، وقد شرب ودارت فوقفت حذاء بدر :

ياذا المعالى ومعدنَ الأدب ... سيّدَنا وابن سيد العرب
أنت عليم بكل معجزةٍ ... ولو سألنا سواك لم يُجب
أهذه قابلتك راقصةً ... أم رفعتْ رجلَها من التعب ؟

وقال أيضاً فيها :

إن الأمير أدامَ الله دولته ... لفاخرٌ كُسيتْ فخراً به مُضَرُ
فى الشُّرب جاريةٌ من تحتها خشبٌ ... ما كان والدَها جنٌّ ولا بَشَرُ
قامتْ على فَرد رجلٍ من مهابتِهِ ... وليسَ تعقلُ ما تأتى وما تذَرُ

وقال وقد سقطت فى دورانها :

ما نقلتْ فى مشيئةٍ قدما ولا اشتكتْ من دُوارها ألما
لم أر شخصاً من قبلِ رؤيتها يفعل أفعالَها وما عزما
فلا تلُمْهَا على تواقعها أطْرَبَها أن رأتك مُبتسما

وأمر بدر بأن ترفع ، فقال :

وذاتِ غدائرٍ لا عيب فيها سِوَى أنْ لَيس تَصلُح للعناقِ
إذا هجرتْ فعن غير اجتنابٍ وإن زارتْ فعن غير اشتياق
أمرتَ بأن تُشَالَ ففارقتْنَا ولم تألَم لحادثةِ الفراق

وفى بعض نسخ ديوان المتنبى أنّه وصفها بشعر كثير ، وهجاها بمثله ولكنّه لم يحفظ .

وكانوا يقيمون التماثيل فى البِرَكِ و يسلّطون الماء عليها ، فيصبّ منها إلى البركة ، وفى أحد هذه التماثيل يقول عمر بن مسعود الحلبيّ المعروف بالمحار . وكان التمثال من نحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه :

وشخص على ساقه قائمٌ مُشيرٌ بساعدِه الأيمنِ
له صورةٌ حسُنتْ منظراً على بدنٍ صيغَ مِن معدنِ
يكاد يحدّثُ جلاّسَه ولكنْ به خرسُ الألكن
إذا بَثَّ من صدره سرَّه فتسبقه أدمعُ الأعينِ
ولم يبك حزناً على نازحٍ ولم يَصْبُ شوقاً إلى موطنِ
صبورٌ على الحرّ والبرد ، لم يُسَرَّ بحال ولم يحزنِ

ومما يلحق بهذه التماثيل ما كانوا يصوّرون به جآجئ السفن من أشكال الحيوان وجوارح الطير وغيرها ، كما فعل الأمين بن الرشيد بتصويره حراقاته[1]

(١) الحراقة بفتح الأول و تشديد الراء كانت تطلق على نوع من السّفن بالبصرة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو ، وعلى السفينة الخفيفة المر على مافى كتب اللغة . ويؤخذ من عبارات المؤرخين وأقوال الشعراء أنها أطلقت بعد ذلك على السفن ذات الحجر والمرافق التى يركبها العظماء ، فهى شبيهة بما يسمى فى مصر (بالذهبية) ويصح إطلاقها أيضاً على مانسميه باليخت .

الخمس بصورة الأسد والدلفين والعقاب والحيّة والفرس ، و إنفاقه عليها مالاً عظيماً .

وفيها يقول أبو نواس :

سخّرَ الله للأمين مَطـايا لم تُسَخَّر لصاحب المحرابِ[1]

فإذا ما ركابُه سرن برًّا سار فى الماء راكباً ليثَ غاب

أسداً باسطاً ذراعيه ، يَعدُو أهْرَتَ الشّدق ، كالحَ الأنياب

لا يُعانيه باللجام ، ولا السو ط ولا غمزِ رِجْلِه فِى الركاب

عجِبَ الناس إذا رأَوْكَ على صُو رةِ ليْثٍ يمرُّ مرَّ السَّحاب

سبَّحوا إذا رَأَوْكَ سرتَ عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب

ذاتِ زَوْرٍ ومِنْسَرٍ وجناحيـ ـن تَشقُّ العُبابَ بعد العُباب

تسبقُ الطيرَ فِى السماء إذا ما اسـ تعجلوها بجيئـةٍ وذهاب

وقال من أخرى :

قد ركب الدلفينَ بدرُ الدجى مقتحماً للماء قد لَجّجا[2]

لم تر عينى مثلَه مركباً أحسنَ إن سار وإن عرّجا

إذا استحثَّته مجاذيفُـه أعنقَ فوقَ الماء أو هملجا[3]

وقال من رجز :

ألا ترى ما أُعطىَ الأمينُ أعطىَ ما لم تره العيون

ولم تكن تبلغـه الظنون الليث والعقـاب والدلفين

---

(١) صاحب المحراب سليمان عليه السلام .

(٢) لجج خاض اللجنة أى مُعظم الماء .

(٣) الهملجة حسن سير الدابة فى سرعة ، والهملاج من البراذين هو ماتسميه الآن (بالرهوان) .

التماثيل فى المغرب

فإذا تركنا المشرق وتماثيله وأخذت بيدك لتشرف معى على الأندلس ، موطن الحضارة العربيّة ومعهد التفنّن والاختراع ، لرأينا عجباً واستجلينا بدعاً . بل استنتجنا من خبر القوم فى قصورهم وجنانهم أنّهم كانوا أشدّ مغالاة بها ، وأحرص على الاستكثار منها من أهل المشرق . وحسبنا ما أقامه الناصر من تماثيل الرخام وغيره بالزهراء ، وما أقيم من التماثيل فى حمراء غرناطة الباقية إلى اليوم تعارك الدهر .

قال المقّرِىّ فى « نفح الطيب » فى كلامه على قصور « الزهراء » إنّ أحمد اليونانى جلب لعبد الرحمن الناصر من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، حوضاً صغيراً أخضر ، منقوشاً بتماثيل الإنسان ، لاتقدر له قيمة لفرط غرابته وجماله ، فنصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى بالزهراء المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصّعة بالدر النفيس الغالى ، ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة . وهى صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر[1] . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها .

من أعظم آثار الملوك

وقال فى موضع آخر : « وفى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها ، وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة ، غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة ، إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك فى غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان ، لهما وميض شديد . يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه فى

---

(١) الذى عده ثلاثة عشر تمثالا ، لا إثنا عشر كما ذكر أولا .

تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، و يستفيض على ساحاته وجنباته ، و يمد النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة و بركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك » .

فيل من فضة على شاطىء بركة

وكان فى قصر المعتمد ، فيل من فضة على شاطىء بركة يقذف الماء ، وهو الذى يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من قصيدة :

ويفرغُ فيه مِثلَ النَّصل بِدْعٌ   من الأفيالِ ، لا يشكو ملالا
رعى رطبَ اللُّجَيْنِ لجاء صلداً   تراه قلَّما يخشى هُزالا

وقال يحيى بن هذيل فى غزالة من نحاس ترمى الماء فى بركة :

عنَّتْ لنا من وَحش وَجْرَة ظبيةٌ   جاءتْ لوِرد الماء ملء عنانها
وأظنُّها إذ حدَّدتْ آذانَها   رِيعتْ بنا فتوقّفت بمكانها
حيَّتْ بقرنَىْ رأسِها إذ لم تُجِد   يومَ اللقاء تحيةً بِبنانها
حنَّتْ على النُّدْمانِ من إفلاسهم   فرمتْ قضيبَ لُجَيْنِها لِحنانها
لله دَرُّ غزالةٍ أبدتْ لنا   دُرَّ الحباب تُصوغه بلسانها

ولما أراد أحد سلاطين مراكش فى القرن الثانى عشر — إبرام هدنة مع الأسبان — ندب لذلك السيد احمد بن محمد بن غزال الفاسى ، و بعثه سفيراً لملكهم سنة ١١٧٩ هـ ، فكان مما شاهده « بإشبيلية » . ووصفه فى رحلته « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » دار عربية كبيرة كانت لم تزل قائمة على عهده . يقول فى أثناء وصفه لها ولجنتها : « و بأعلى السور تصويرة آدمى ، و بيده بوق متصل بفيه ، يزعق فيه ، ولا يسكت إلا إذا انقطع الماء ، و بهذا الروض عدة صهاريج استوعب جميعها تصاوير يدفق الماء من فيها » .

بركة عليها أشجار مذهبة

وقس على الأندلس ، سائر بلاد المغرب ، وما كان فى قصورها من الصور والتماثيل كالدار التى بناها المنصور بن أعلى الناس[1] ببجاية ، واتخذ فى بستانها بركة عليها أشجار مذهبة ترمى أغصانها الماء ، وعلى حافاتها أسود مذهبة قاذفة بالماء أيضاً .

وفيها يقول ابن حمديس :

وضراغمٍ سكنتْ عرينَ رياسةٍ ... تركتْ خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النُّضار جُسُومَها ... وأذاب من أفواهها البلّورا
أُسْدٌ كأنّ سكونها متحركٌ ... فى النفس لو وجدت هناك مثيرا

إلى أن يقول فى الأشجار :

وبديعةِ الثمراتِ تعبُر نحوها ... عيناى بحرَ عجائب مَسْجورا
شجرية ، ذهبية نزعتْ إلى ... سِحْرٍ يُؤثِّر فى النُّهى تأثيرا

إلى آخر ما قال فى وصفها . وله من قصيدة أخرى يصف فيها بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود :

خُصَّت بطائرةٍ على فنَنٍ لها ... حَسُنَتْ فأفرِدَ حُسنُها من ثان
قَسٌّ الطيور الخاشعات بلاغةً ... وفصاحةً من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلامُ تكلّمتْ ... بخرير مَاء دائم الهملان

إلى أن يقول :

وزرافةٍ فى الجوف فى أنبوبها ... ماء يريك الجرْىَ فى الطّيران
وكأنما ترمى السماء بِبُنْدُق ... مُستنبَطٍ من لُؤْلُؤ وجُمان
فى بركة قامتْ على حافاتها ... أسدٌ تذلُّ لعزّة السلطان

وهى طويلة ، نكتفى منها بهذا المقدار .

---

(١) أورده ياقوت فى معجم البلدان بلفظ (علناس) واماه اسم بربرى استصوبوا تعبيره بأعلى الناس ، أو يكون أعلى الناس هو الأصل وخرفته العامة بالمغرب ، فجرى ياقوت على ماهو مشهور بينهم . وممن ذكره بلفظ (علناس) ابن الأثير فى الكامل مكرراً فى عدة مواضع .

تمثال جاريتين فى تدمر بالشام

وروى ياقوت فى « معجم البلدان » فى كلامه على آثار تدمر فى الشام ، أنه كان من جملة التصاوير التى بها صورة جاريتين من حجارة ، فمر بهما أوس بن ثعلبة التيمى ، صاحب قصر أوس بالبصرة ، فاستحسنهما وقال :

فتاتىْ أهلَ تدمرَ خبّرانى ألمَّا تسأما طولَ القيام ؟
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام
فكم قد مرّ من عدد الليالى لعصركما ، وعام بعد عام
وإنكما على مرّ الليالى لأبقى من فروع ابنى سمام

ويروى عن الحسن بن أبى سرح عن أبيه قال : دخلت مع أبى دُلَف إلى الشام — فلما دخلنا تدمر وقف على صورتين هناك ، أخبرته بخبر أوس بن ثعلبة ، وأنشدته شعره فيهما ، فأطرق قليلًا ثمّ أنشدنى :

ما صورتان بتدمر قد راعتا أهل الحِجَى وجماعةَ العشّاق
غَبَرا على طول الزمان ومرّه لم يسأما من ألفةٍ وعناق[1]
فليرمينّ الدهرُ عن نكباته شخصَيهما منه بسهم فراق
وليبلينّهما الزمانُ بكرّه وتعاقب الإظلام والإشراق
كى يعلمِ العلماء ألاّ واحداً غير الإله الواحد الخلّاق

وقال محمد بن الحاجب يذكرهما :

أتدمرُ صورتاك هما بقلبى غرامٌ ليس يشبهه غرامُ
أفكّر فيكما فيطير نومى إذا أخذتْ مضاجعها النيّام
أقول من التعجّب أىّ شىء أقامهما فقد طال القيام ؟

---

(١) كان الوجه (غبرتا) و (تسأما) .

أملَّكتنا قيام الدهر طبعاً فذلك ليس يملكهُ الأنام[1]
كأنهما معاً قِرْنان قاما أتجلهما لدى قاضٍ خصام[2]
يمر الدهر يوماً بعد يوم ويمضى عامه يتلوه عام
ومكثهما يزيدها جمالاً جمال الدر زَيّنهُ النظام
وما تعروهما نكبات دهر سجيته اصطلام واخترام[3]

وقال أبو الحسن العجلى فيهما :

أرى بتدمر تمثالين زانهما تنوق الصانع المستغرق الفطن
هما اللتان يروق العين حسنهما يستعطفان قلوب الخلق بالفطن

حكم التصوير فى الإسلام

فى صحيح البخارىّ : « عن بُسْر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : إنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة .

قال بُسْر : ثمّ اشتكى زيد فعدناه ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعُبَيْد الله ربيب ميمونة زوج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ألم يُخبر زيد عن الصورة يوم الأوّل ، فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال إلا رقما فى ثوب ؟»

وفى « الكامل » لابن الأثير . فى حوادث سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، إن عبد الرحمن بن ربيعة كان له سيف يسمى بالنون . ولذلك قيل له : « ذو النون » والظاهر أنه كان متخذا له مثال سمكة أيضا ، كسيف مالك بن زهير فسمى بذلك .

وفى « الكامل » أيضاً ، فى ذكر سلاح النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان له ترس فيه تمثال رأس كبش ، فكرهه لذلك .

---

(١) فى الأصل (أملكتنا) .

(٢) فى الأصل (لذى) .

(٣) فى الأصل : (وما تعددها بكتاب دهر) . وهو لا يوافق السياق . فضلا عما فيه من الغموض .

وفى باب التصاوير من صحيح البخارى عن مسلم أنه قال : كنا مع مسروق فى دار يسار بن نمير ، فرأى فى صفّته تماثيل ، فقال : سمعت عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » . والمراد هنا بالتماثيل أيضا الصور المنقوشة بالدهان على جدران الصفة ، على ما يفهم من شروح صحيح البخارى .

من خطبة للامام على رضى الله عنه

ومن خطبة للامام على رضى الله عنه فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام : « ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير ، فيقول : يا فلانة — لإحدى زوجاته — غيّبيه عنّى ، فإنّى إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها . فأَعْرَضَ عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأَحبّ أن تغيب زينتها عن عينيه ؛ لكيلاَ يتّخذ منها رياشاً » .

وذكر العليمى فى « المنهج الأحمد » عن أحمد بن على العلثى أحد الزهاد أنه كان عفيفا لا يسأل أحداً شيئاً ، ويتقوت من عمل يده بتجصيص الحيطان ، ويتنزه فى صناعته عن عمل النقوش والصور . ثم ترك صناعته بسبب دخوله مرة دار السلطان للعمل مع الصناع ، وكان فيها صور من الأسفيداج ، فلما خلا كسرها كلها ، فاستعظموا ذلك منه ، وانتهى أمره إلى السلطان ، وأخبروه بصلاحه فأمر بإخراجه ولم يعاقبه .

صور على الستور المنسوجة بالذهب

ذكر المقريزىّ فى خططه — فى الكلام على خزائن الفرشْ والأمتعة الفاطميّة — أنّه كان بها من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، عدّة مئين تقارب « الألف » فيها صور الدول وملوكها والمشهورين فيها ، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدّة أيامه وشرح حاله .

وفى مقدّمة تاريخ مدينة السلام للخطيب فى وصف ما هيأه المقتدر للاقاة رسول ملك الروم « كان عدد ما علّق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصوّرة بالجامات ، والفيلة ، والخيل ، والجمال ، والسباع ، والطيور ، والستور الكبار البَصَنَّائيّة[1] ،والأرمنيّة ، والواسطية ، والبهنسية السواذج ، والمنقوشة ، والدبيقيّة المطرزة ، ثمانية وثلاثون ألف ستر » .

وقال أبو العلاء المعرىّ مما كتب على ستر فيه صور طيور :

الحسن يعلم أن من واريته قمرٌ تستّر فى غمام أبيض
غشى الطيور غوافلاً فتحيّرت منـه فلم تبرح ولم تتنفّض

وقال المتنبى يصف سترا مصورا :

نافستُ فيه صورةً فى ستره لو كنتها لخفيتُ حتى يظهرا
لا نترب الأيدى المقيمة فوقه كسرى مقام الحاجبين وقيصرا

تماثيل الزَّهْر والنَّوْر

لم يقتصر عرب الأندلس على اتخاذ التماثيل مما تتّخذ منه عادةً ، بل تفننوا فى التلاهى بصوغها من الزهر والنّوْر أيضاً — كما روى — عن المنصور بن أبى عامر وقد أراد امتحان بداهة صاعد اللغوى ، فاستدعاه لمجلسه ، وقد أعدّ طبقاً عظيماً ، جعل فيه سفائف[2] مصنوعة من أنواع النَّوْر ، وصنع على السفائف مركباً من ياسمين فيه أمثال الجوارى ، وتحت السفائف بركة ماء قد ألقى فيها لؤلؤاً مثل الحصباء وطلب منه وصفها . فقال بديهة :

(١) نسبة إلى (بصنى) قال فى القاموس إنها محركة مشددة النون — قرية منها الستور البصنية . وفى معجم البلدان لياقوت أنها بالفتح ثم الكسر وتشديد النون — مدينة من نواحى الأهواز صغيرة وجميع رجالهم ونساءهم يغزلون الصوف ، وينسجون الأنماط والستور البصنية ، ويكتبون عليها بصنى

(٢) السفائف بفاءين هكذا فى ريحانة الخفاجى ، وهى جمع سفيفه للوعاء ، ينسج من خوص والذى فى « نفح الطيب » : سقائف بقاف ثم فاء

أبا عامرٍ هل غيرُ جدواكَ واكفٌ ؟ وهل غيرُ مَن عاداكَ فى الناس خائفُ ؟
يسوق إليك الدهرُ كلَّ غريبةٍ وأغربُ ما يلقاه عندك واصفُ
وشائعُ نَوْرٍ صاغها صَيِّبُ الحيا عليها ، فمنها عَبْقَرٌ ورفارِفُ
ولما تناهَى الحسنُ فيها تقابلتْ عليها بأنواع الملاهى الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنةُ كُنَّسًا تظللها بالياسمين السفائف

إلى آخر ما قال ، وكان إلى ناحية تلك السفائف ، سفينة فيها جارية من النوّار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال المنصور : أجدت إلاّ أنّك لم تصف هذه الجارية . فقال :

وأعجبُ منها غادةٌ فى سفينةٍ مكللةٌ يهفو إليها المهاتف
إذا راعها موجٌ من الماء تتّقِى بِسُكّانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء رُبّانَ مركبٍ تصرّف فى يُمنَى يديها المجاذف
ولم تر عينى فى البلاد حديقةً تُنقّلها فى الراحتَين الوصائف

وكان (قصر الورد) يتخذ فى مصر للخلفاء الفاطميين بالخاقانية ، وهى قرية من قرى قليوب كانت من خاصّ الخليفة ، وبها جنان كثيرة يغرس فيها الورد ، وكانت من أحسن المتنزّهات المصرية .

وكان هذا القصر — من أيام الفاطميين المعدودة ، يسير فيه الخليفة إلى تلك القرية ، ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ، ويُخدم بضيافة عظيمة ، على ما ذكره المقريزى فى خططه .

بستان خمارويه

ومما يحسن الاستطراد إلى ذكره وإلحاقه بتماثيل الزهر ما كانت تزيّن به بساتين مصر ، من النقش والكتابة بأنواع الرياحين على ما هو مفصل فى الخطط المذكورة (١).

(١) ذكره أيضاً ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » وعبارة الخطط أكثر تفصيلا .

فى الكلام على بستان خُمَارَوَيْه(١) وقد آثرنا نقل وصف هذا البستان برمّته ، لما فيه من الدلالة على مبلغ القوم فى مظهر من مظاهر حضارتهم . قال : « لما مات أحمد بن طولون ، وقام من بعده ابنه خمارويه ، أقبل على قصر أبيه ، وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه ، فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ونقل إليه الوَدِىّ(٢) اللطيف الذى ينال ثمره القائم ومنه يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل . وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب(٣) الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فتنحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقى سائر البستان . وغرس فيه الريحان على نقوش وكتابات يتعاهدها البستانىّ بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النَّيْلَوْفَر(٤) الأحمر والأزرق والأصفر والجنوىّ العجيب . وطعّموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجاً من خشب الساج(٥) المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه أنهاراً لطافاً ، جداولها يجرى فيها الماء مدبراً من السواقى من الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها . كما سرح فى البرج من أصناف القَمَارِىّ(٦) والدَّبَاسِىّ والنونيات ، وكل طائر مستحسن حسن الصوت ،

---

(١) كان قصر ابن طولون وميدانه ، وبستانه فى الجهة الواقعة بين مسجده والقلعة ، ويدخل فيها ميدان القلعة والرميلة ، وأكثر أماكن قسم الخليفة أحد أقسام القاهرة الآن

(٢) صغار النخل .

(٣) المزاريب جمع مزراب — لغة ضعيفة فى الميزاب ، والمقصود بها هنا — قنوات الرصاص — التى يجرى فيها الماء .

(٤) هو المعروف الآن عند عامة مصر الآن بالبشنين .

(٥) ضرب عظام من الشجر خشبه أسود قيل إنه يشبه الآبنوس ولكنه أقل سواداً منه .

(٦) القمارى ضرب من الحمام ، والدبا [illegible] طائر أدكن [illegible]

وجعل فيه أوكاراً من قواديس لطيفة ممكّنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها عيدانا فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى تجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ، ودجاج الحبش ، ونحوها شيئاً كثيراً .

« وعمل فى داره مجلساً بِرواقه سمّاه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلّها بالذهب المجاول[1] باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صُوَراً فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياه ، والمغنيات اللاتى يغنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ؛ وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الأبريز الرزين ، والكرازن[2] المرصعة بأصناف الجواهر ، وفى آذانها الأجراس[3] الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا » .

بطيخة من الند عليها قلادة من لؤلؤ

ومما روى عن المتنبيّ ، أنه دخل على أبى العشائر الحسين بن على بن حمدان ، ورأى فى يده — بطيخة من ند فى غشاء من خيزران ، وعليها قلادة من لؤلؤ ، فحياه بها ، وطلب منه تشبيهها ، فقال :

وَبَنِية من خيزران ضُمّنتْ   بطيخة نبتت بنار فى يد
نظم الأمير لها قلادة من لؤلؤ   كفعاله وكلامه فى المشهد

(١) هكذا بالأصل ، ويرى بعض الفضلاء أن صوابه : المجدول .

(٢) الكرازن جمع كرزن — لفظ فارسى — كان يطلق على تاج صغير مرصع بالجواهر يعلقه ملوك فارس فوق سرير الملك ، وتارة يلبسونه ، ويطلق أيضاً على قلنسوة من الديباج مرصعة ، وهو المراد هنا . وقد ورد محرفا فى نسخة الخطط بلفظ (الكوادن) بالواو والدال المهملة .

(٣) الذى فى عبارة النجوم الزاهرة (الأخراص) والظاهر أنه الصواب لأن الخرص بضم فسكون : الحلقة من الذهب والفضة أو حلقة القرط ، وهو المناسب للآذان ، وأما الأجراس فلا معنى لها هنا .

كالكأس باشرها المزاج فأبرزت زبداً يدور على شراب أسود

وقال فيها ارتجالاً أيضاً :

وسوداء منظوم عليهـا لآلئٌ لها صورة البطيخ وهى من الند
كأنَّ بقايا عنبرٍ فوق رأسها طلوع رواعى الشيب فى الشَّعَر الجعد

زر ذهب فى كرة عنبر

كان الملك العزيز بن صلاح الدين يميل إلى القاضى الفاضل فى حياة أبيه ، فاتفق أن العزيز هوى قينة شغلته عن مصالحه ، و بلغ ذلك والده فأمره بتركها ، ومنعها من صحبته ، فشق ذلك عليه ، وضاق صدره ، ولم يجسر أن يجتمع بها . فلما طال ذلك بينهما ، سيرت له مع بعض الخدم « كرة عنبر » فـكسرها فوجد فى وسطها زر ذهب ، ففـكر فيه ، ولم يعرف معناه ، واتفق حضور القاضى فعرفه الصورة ، فعمل القاضى الفاضل فى ذلك بيتين ، وأرسل بهما إليه ، وهما :

أهدت لك العنبر فى وسطه زر من المتبر دقيق اللحام
فالزر فى النبر معناهما زر هكذا مستتراً فى الظلام

فعلم العزيز أنها أرادت زيارته فى الليل . وهذا و إن كان خارجاً عما قصدناه فقد ساقتنا المناسبة إلى ذكره .

فى دار ابن زريك فارس المسلمين

ووصف عمارة اليمنى فى قصيدة له ستورا عليها تصاوير فى دار « بدر بن زريك » فارس المسلمين ، كما ذكر حريق منظرته على الخليج ، قال[1] :

ألبستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الروض أبيض أحمرا

---

(١) نقلنا هذه الأبيات من « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » لعمارة . ومن ديوانه الملحق به ، ومن نهاية الأرب للنويرى . وتختلف الروايات فى بعض الألفاظ . وقد أثبتنا ما رجحنا صوابه منها

ومجالس .. كسيت رقيماً أبيضا ومجالس .. كسيت طميماً أصفرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوّرا
فيها حدائق لم تجدها ديمة أبداً ، ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض إلا مزهراً والنخل والرمان إلّا مثمرا
والطير مذ وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنفرا
وبها من الحيوان كل مشهر لبس الوشيح العبقرى مشهرا[1]
لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثاً ، ولا ظبياً بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها فظباؤها لا تتقى أسد الشرى
وكأن صولتك المخيفة أمنت أسرابها ألا تراع وتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشا تريك من المها روقا ، ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الأقعاء من إعجابها فتخالها للتيه تمشى القهقرى

صور على جدران الكعبة المشرفة

كانت الكعبة المعظمة مصورة الجدران فى الجاهلية ، فلما فتحت مكة المكرمة أزيلت تلك الصور . ذكر ابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » أن النبى عليه الصلاة والسلام بعث عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ، ولا تمثالاً إلا محاهما ، فأزالها عمر ، وترك صورة إبراهيم عليه السلام ، فأمره بمحوها[2] ، وقال ، : « قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام » .

وذكر أيضاً فى رواية عن أسامة بن زيد أنه قال : دخلت مع رسول الله صلى

---

(١) الذى فى نهاية الأرب : لبس الحرير العبقرى مصورا .
(٢) هذه الصورة كانت تمثالا مخروطاً — فالمراد بالمحو هنا مطلق الإزالة بحك ما كان مدهوناً وغسله وإتلاف ما كان ذا ظل .

الله عليه وآله — الكعبة — فرأى فيها صوراً ، فأمرنى أن آتيه فى الدلو بماء فجعل يبل الثوب و يضرب به الصور ، و يقول: «قاتل الله قوماً يصورون مالا يخلقون».

وذكر العلامة ابن حجر فى «فتح البارى شرح صحيح البخارى» فى شرح غزوة الفتح ، ما يستفاد منه أن بقية بقيت من تلك الصور لخفائها على من محاها .

صورة مريم وعيسى عليهما السلام

وروى عن أبى عائذ فى المغازى أن صورة عيسى وأمه عليهما السلام — بقيتا حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسان فقال : « إنكما لببلاد غربة » . فلمّا هدم ابن الزبير البيت ذهبتا فلم يبق لهما أثر .

ثمّ روى بعد ذلك عن ابن جريج أن بعضهم أدرك فى الكعبة تمثال مريم عليها السلام ، وفى حجرها ابنها مزوّقاً . وكان ذلك فى العمود الأوسط الذى يلى الباب ، ثمّ ذهب فى الحريق .

ولعل المراد بالتمثال هنا الصورة المنقوشة لا المخروطة ، بدليل قوله « مزوّقاً » أى مصوراً بالدهان .

صورة للشمس والهلال

عثر المنقّبون من الأفرنج فى آثار اليمن على نقوش فى الجدران فيها صور أناس يمانين بين رجّالة ؛ وفرسان ، ومتقرب بين بالضحايا للأوثان .

وذكر الهمدانىّ فى الإكليل فى كلامه على رِئَام : أنّه كان أمام قصر أحد ملوك اليمن حائط فيه بلاطة فيها صورة الشمس والهلال ، فإذا خرجُ الملك ورآها كفّر لها ، بأن يضع راحته تحت ذقنه ، ثمّ يخر بذقنه عليها .

وذكر فى موضع آخر من هذا الكتاب قصراً كان بتدمر قديماً ، مصوّر الحيطان ، وأورد قصيدة فى وصفه تنسب للنابغة وليست له ، ذكر فيها أنواع هذه

الصور من فرسان مدججين ، وصنوف من الحيوان ، كالثعالب ، والفيلة ، والأسود ، وغيرها ، إلا أنّ التحريف الغالب عليها منعنا من إيرادها .

القصر الأبلق فى دمشق

كان القصر الأبلق الذى بناه الظاهر بيبرس فى مرجة دمشق — وقد وصفه ابن طولون فى « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » فقال : « كان من عجائب الدنيا ، يشرف على الميدان الأخضر شرقيه ، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين عقب رجوعه من حجته فى المحرم سنة ثمانٍ وستين وستمائة ، كذا رأيت هذا التاريخ أعلى بابه الشمالىّ ، وعلى أسكفّته ضرب خيط من رخام أبيض ، ووسطه مكتوب — عمل ابراهيم بن غنائم المهندس — وبابه الآخر ينفذ إلى الميدان . وفى واجهته البلقاء ثلاثون شبّاكا ، سوى القمارى ، ووسطه قاعة بأربعة لواوين[1] . قبلىّ وشمالىّ ، فى صدرهما شاذروانان ، وغربى وشرقى فى صدر كل منهما ثلاثة شبابيك ، فالغربيات مطلات على الطريق الآخذ إلى الحمّام وتربة الصوفية ، والشرقيّات مطلات على الميدان .

حمام الشطارة باشبيلية

كان بحمام الشطارة بإشبيليَّة صورة بديعة الشكل ، جلاها لنا أحد شعراء الأندلس بقوله :

ودُميةِ مَرْمَر تزهو بجيدٍ　　تَناهَى فى التورُّدِ والبياضِ
لها ولد ولم تعرف حليلا　　ولا أَلِمَتْ بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجرٌ ولكن　　تُتَيِّمنا بألحاظ مِراض

---

(١) جمع ليوان فى اللغة العامية . وصوابه إيوان وجمعه إيوانات واواوين .

دار الملك رضوان بحلب

كانت دار الملك رضوان بحلب ، وفيها يقول الرشيد عبد الرحمن بن النابلسى ، من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ هـ ، ويذكر ما على جدران الدار من الصور :

دارٌ حكتْ دارَيْن فى طِيب ، ولا ... عطرٌ بساحتها ولا عطارُ
رُفعتْ سماءُ عمادها فكأنها ... قُطبٌ على فلكِ السعود يُدار
وزهتْ رياضُ نقوشها ، فبنفسجٌ ... غصنٌ وورد يانعٌ ، وبَهارُ
نَوْرٌ من الأصباغ مُبْتَهِجٌ ، ولا ... نَوْرٌ ، وأزهارٌ ، ولا زهّارُ

ومنها :

صُورٌ ترى ليث العرين تُجَاهَهُ ... فيها ، ولا يخشى سطاه صُوَارُ
وموسّدين على أسرة ملكهم ... سكراً ، ولا خمرٌ ولا خمّار
لا يأْتَلِى شَدْوُ القيان رواجعاً ... فيها ، ولا نَغَمٌ ولا أوتارُ
هذا يعانقُ عودَه طرباً ، وذا ... دأباً يقبّل ثغرَه المِزْمَار

ثم لما تزوج بصفيّة ابنة عمه الملك العادل ، وأسكنها فى هذه الدار ، وقعت نار عقب العرس ، فاخترقت واحترق جميع ما فيها . ثمّ جدد عمارتها وسماها « دار الشخوص » لكثرة ما كان من زخارفها .

قصر الرفرف بقبة الجبل

فى خطط المقريزى ، أنّ الأشرف خليل بن قلاوون لما عمّر « الرفرف » بقلعة الجبل ، جعله عالياً بحيث يشرف على الجيزة كلها ، وبيّضه ، وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصّها ، وعقد عليه قبّة على عمد وزخرفها ، وصار مجلساً يجلس فيه السلطان ، إلى أن هدمه أخوه الناصر محمد سنة ٧١٢ هـ .

مسجد المتوكل فى سُرَّ من رأى

جاء فى مجلّة لغة العرب[١] التى تصدر فى بغداد، وصف للتنقيب الذى قام به الأستاذ هرتسفلد الألمانى فى آثار مدينة « سُرَّ من رأى » التى بناها المعتصم، ذكر فيه أنّه عثر بين دفائن أطلالها على آثار المسجد الجامع الذى بناه المتوكل، وشاهد فى بقايا الدور غُرفاً وأبهاء زيّنت جدرانها بتصاوير شرقيّة، بين بارزة وغائرة فى الجص، وصور ملونة للآدميين وغيرهم، بديعة المثال، حافظة لجدّتها على غِيَر الزمان.

وذكر ياقوت فى معجم البلدان أن المتوكل بنى قصراً بُسر من رأى سمّاه بالمختار، كانت فيه صور عجيبة، منها صورة بيعة فيها رهبان، وأحسنها صورة شهّار البيعة وهو الذى قيل فيه[٢].

ما رأينا كبهجة المختـار لا، ولا مثلَ صُورة الشهّار
مجلسٌ حُفَّ بالسرور، وبالنّر جس والآس والغنا والزمار[٣]
ليس فيه عيب سوى أن ما فيـ ـه سيفنيه نازلُ المقدار

صور أشجار وأمصار بالمسجد الأمويّ

وذكر المقدّسى فى — أحسن التقاسيم — أنّ جدران المسجد الأموى بدمشق كانت مكسوّة بالرخام المجزع، إلى قامتين. ثم بالفسيفساء الملونة المذهبة إلى السقف.

---

(١) مجلة لغة العرب ج١ ص ٨١ — ٨٤.

(٢) فى معجم البلدان أن ناظم هذا الشعر (لوائق) ولا يخفى أنه ولى الخلافة قبل (المتوكل) فالظاهر أن المتوكل بنى هذا القصر فى خلافة أخيه كما ذهب إليه الفاضل صاحب مجلة لغة العرب فى مقال له فى مجلة الهلال ج٢٧ ص٣٩٤.

(٣) هكذا بالأصل.

وفيها صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان .

وحكى البدرى فى « نزهة الأنام فى محاسن أهل الشام » عن بعض المؤرّخين : أنّ الرخام كان فى جدران هذا المسجد ، سبع وزرات ، ومن فوقه صفات البلاد ، والقرى ، وما فيها من العجائب ، وأن الكعبة المشرّفة وضعت صفتها فوق المحراب ، ثم فرّقت البلاد يميناً وشمالاً ، وما بينها الأشجار المثمرة والمزهرة ، وغير ذلك ، ولا نعلم إن كانت هذه الصورة من عمل صنّاع الرّوم الذين استجلبهم « الوليد » عند بناء المسجد ، أم من عمل العرب الذين اشتركوا معهم فى العمل ، فتكون داخلة فيما قصدناه .

ولبعض المحدثين قصيدة فى وصف هذا المسجد ، أوردها ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » ، والنويرى فى « نهاية الأرب » يقول فيها فى وصف صورة :

إذا تفكّرت فى الفصوص وما فيها تيقّنت حذقَ واضعها
أشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح فى مدافعها
كأنها من زمرّد غُرست فى أرض تبر تُغشى بفاقعها
فيها ثمارٌ كأنها يَنَعتْ وليس يُخشى فسادُ يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحة الـ أيدى ولا تُجتنى لبائعها

تصوير مجالس الخلفاء العباسيين

مما يدل على أن مجالس الخلفاء كانت مصوّرة الجدران ، ما حكاه ابن المخلّطة فى « العزيزى المحلى » عن « المهتدى بالله العبّاسى » وزهده ، وتقلّله من الدنيا ومخالفته من قبله من الخلفاء فى أمور كثيرة ذكرها ، وذكر منها : « أنه عمد إلى الصور التى كانت فى مجالس الخلفاء فمحاها ، وأزال تلك الشخوص المشوّهة فى الحيطان وغيرها » .

وذكر أبو هلال العسكرى فى الباب العاشر من كتابه « الصناعتين » فى كلامه على ما ينبغى الاحتراز منه فى مفتتح القصائد ، أن المعتصم لمـّا فرغ من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه ، وأمر أن يلبس الناس كلّهم الديباج ، وجعل سريره فى الإيوان المنقوش بالفسيفساء ، الذى كان فى صَدره صور العنقاء . فجلس على سرير مرصع بأنواع الجوهر ، وجعل على رأسه التاج الذى فيه الدرّة اليتيمة . وفى الإيوان أسرّة من آبنوس عن يمينه وعن يساره ، من عند السرير الذى عليه المعتصم إلى باب الإيوان . فـكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه فى الموضع الذى يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم . فاستأذنه اسحاق بن إبراهيم فى النشيد فأذن له ، فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه فى صفته وصفة المجلس ، إلا أنّ أوّله تشبيب — بالديار القديمة — و بقية آثارها فـكان أول بيت منها :

يا دار غيَّركِ البِلَى فمحاكِ يا ليتَ شِعرى ما الذى أبلاكِ ؟

فتطيّر المعتصم منها ، وتغامز الناس . وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك !

تماثيل من العنبر والمسك والكافور

فى « لطائف المعارف » للثعالبى أن المتوكل لمـا أعذر[1] ابنه المعتز ، احتفل فى الدعوة وجلس بعد فراغ القوّاد والأكابر من الأكل ، ومُدّت بين يديه مرافيع ذهب مرصّعة بالجوهر وعليها أمثلة من العنبر والنّد والمسك المعجون على جميع الصوَر .

وفى أخبار مصر لابن ميسّر فى ذكر ما وجد من الذخائر فى خزائن الأفضل ابن أمير الجيوش وزير الآمر الفاطمى بعد مقتله ، أنّه — كان بينها « لعبة عنبر على

---

(١) أعذر الغلام ختنه . وأعذر للقوم عمل طعام الختان .

قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الرّاحة » . وهو من غريب مايروى من ضروب التنعّم والترفّه .

وفى « مطالع البدور » وصف مفصّل لهذا الإعذار ، جاء فيه أنّ هذه التماثيل عملت من العنبر والمسك والكافُور على مثل الصور ، فمنها ما كان مرصعاً بالجوهر مفرداً ، ومنها ما كان عليه ذهب وجوهر .

تماثيل لحيوانات خيالية

كان بعض العرب يتخذون حمالات الأزيار من التماثيل ، على سورة سلحفاة برأس أو برأسين ، ويزخرفونها بالكتابات الكوفيّة وصور من الحيوانات خيالية وكان من غرائبها[1] تمثال غول اتّخذ مقرعة للباب الكبير بمسجد لجماس الإسحاقى بالقاهرة المعروف اليوم بجامع « أبى حريبة » .

مصابيح مزخرفة بأنواع النبات والطيور

مما صنعه العرب فى العصور الإسلامية — ما يوجد بدار الآثار العربيّة بالقاهرة من مجموعة من المصابيح الزجاجية المزخرفة — على بعضها أسماء صناعها . وفيها ما هو مصوّر بأنواع النبات والطيور ، يندر وجود مثلها فى دور الآثار ، نذكر منها مشكاة عليها اسم السلطان محمد بن قلاوون ، وبين زخارفها كثير من صور الطيور المتقنة الرسم ، ومشكاة بديعة التذهيب عليها صور طيور ومكتوب عليها : « مما عمل برسم المقرّ العالى السيفى الملك الناصرى » وقطعة من كرة تعلّق على المشكاة ، عليها صور طيور أيضاً ، وقطعة جام من غَضار عليها عصابة من الكتابة الكوفيّة ، وبأسفلها صورة تيسين يتناطحان ، رمزاً لما كان يهواه بعض الغزاة من الفرس ، وإظهاراً لأنّ القوّة أساس عندهم لصاحب الحق بالغلبة أو التغلب على خصمه .

---

(١) وجه الغرابة كونه فى مسجد ، ومثله باب بمسجد الأمير أبى بكر مزهر الأنصارى عليه صور طيور منقوشة على العاج المنزل فيه .

صورة مطربين على قمقم للعطر

ومن الأوانى العربيّة المصّورة المحفوظة بدار الآثار — قمقم للعطر مُكَفَّت بالفضة مكتوب عليه (يا فاعل الخير) — وعليه صورة جماعة يضربون على آلات الطرب .

والمراد بالتكفيت : تنزيل الذهب والفضة فى النحاس ونحوه ، كالتطعيم فى الخشب ، ويقال له : (الكفت أيضاً) — ولصانعه : الكفتى .

ومنه قول بعضهم :

لى كفتى سبانى حسنه   لا أرى من حبه لى مخرجاً
مد تبرا فى حديد لحكى   قمراً طرز بالبرق الدجى

وقول آخر :

لله كفتى أطاع صبابتى   فيه الفؤاد وخالف اللواما
مد الشريط على الحديد لخلته   قمراً يطرز بالبروق غماماً

وكلها ألفاظ مولّدة ، وكان لهذه الصناعة رواج بمصر ولأهلها اشتغال بها ، على ما فى خطط المقريزى . وقد انقطعت الآن منها ، و بقيت منها بقية بالشام .

تنانير مصورة ومنقوشة بصور الفرسان

ومنها إناء نقش عليه اسم (محمد بن فضل الله) أحد بنى فضل الله العمرى المشهورين بكتابة الإنشاء بمصر ، وطرزت حافّته بكتابة فيها ألقابه ، يتخلّلها صور طيور ، و إناء آخر عليه صورة فارس . وفيها غير ذلك من الأوانى كالطاسات والصوانى المصوّرة بأشكال الحيوان والتنانير المنقوشة بصور الفرسان .

صور من خزائن بنى أمية

ذكر الخالديان فى كتاب « الهدايا والتحف » هدية أهداها ملك الهند للخليفة المأمون ، فقابلها بهدية مثلها أرسل بها إلى هذا الملك ، وهى كتاب اسمه (ديوان الأدب وبستان نوادر العقول) ومعه تحف كثيرة قيمة فصلا ذكرها ، منها مائدة جزع ثمينة وجام زجاج فرعونى فتحته شبر ، وفى وسطه صورة أسد أمامه رجل قد جلس على ركبتيه وفوق السهم فى القوس نحو الأسد . وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بنى أمية[1] .

تمثال المتجردة

مما يدل على أن أهل اليمن كانوا يقيمون بعض التماثيل على قواعد مرفوعة أى على نحو ما تقام عليه اليوم — قول النابغة الذبيانى — فى المتجردة امرأة النعمان :

قامت تراءى بين سجفى كلة   كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية ، غواصها   بهج ، متى يرها يهل ويسجد
أودمية من مرمر مرفوعة   بنيت بآجر يشاد وقرمد

قال شارحه الوزير أبو بكر البطليوسى : « يقول هذه المرأة مثل دمية بنى لهـا بنيان مرتفع وحملت فيه ، فهو أصون لها وأحفظ لجسمها » .

رمحان برأسيهما أهلة من ذهب

فى « خطط المقريزى » و « وصبح الأعشى » للقلقشندى ، أن الفاطميين كان

---

(١) ذكر شيخ الربوة هذه المائدة وهذا الجام فى (نخبة الدهر) وقال : إنهما وجدا فى خزائن مروان بن محمد ولم يتعرض لهدية المأمون . وليحقق إن كان هذا الجام من الصناعة العربية أم من الصناعات القديمة . وليحقق أيضاً إن كان القصد بالفرعونى أنه من الآثار العتيقة أم هو نوع من الزجاج عرف بذلك.

لهم علمان دون لواء الحمد ، وهما رمحان برأسيهما أهلة من ذهب صامت — وفى كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر وفى فمه طارة مستديرة تدخل فيها الريح[1] فيفتحان ، فيظهر شكاهما ، يحملهما فارسان من صبيان الخاصة ، فيكونان أمام الرايات فى المواكب .

أعلام يمنيه مصورة على عرفات

فى « صبح الأعشى » ان شعار سلطان اليمن كان وردة حمراء فى أرض بيضاء قال ابن فضل الله : ورأيت أنا البيرق اليمنى وقد رفع على عرفات سنة ٧٣٨ هـ ، وهو أبيض ، فيه وردات حمر كثيرة . وفى كتاب « التراجم » عندنا[2] — أبيات لابن حمديس من قصيدة فى المديح ، ذكر بها أعلاماً مصورة كانت فى جيش ممدوحه ، وهى مع زيادات عليها من الديوان :

ومطلة فى الخافقين خوافق كقلوب أعداء ذوات وجيب
من كل منشور على أفق الوغى وسطوره كالمهرق المكتوب
جاءت تتربه العتاق بنقعها والريح تنفضه من التتريب
أو كل ثعبان يناط بقسور بين البنود كمحنق وغضوب
صور خلعن على الموات فخيلت فيها الحياة بسورة ووثوب
وفغرن أفواهاً رحاباً عطلت أشداقها من ألسن ونيوب
من كل شخص يحتسى من ريحه روحاً تحرك جسمه بهبوب

جمال من طين لمعالجة المس

من مزاعم العرب فى جاهليتهم — نوع من « تماثيل الجمال » كانوا يعملونها من الطين . قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة :

---

(١) كذا بالخطط ، والذى بصبح الأعشى « يدخل فيها الرمح » .
(٢) موجود بالخزانة التيمورية — بدار الكتب المصرية .

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مسًّا من الجن لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً — عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة وشعيراً أو تمراً ، وجعلوا تلك الجمال فى باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس ، وتحايلوا على من به علة من مس الجن — فإذا ما أمسك بها ظنا منه أنها جمال حقيقية وحاول سحبها ليغنم ما تحمله من الجوالق ، انهارت وسقطت بما عليها ، فيحدث ذلك فى نفسه رد فعل أثره ، فيتسبب لصاحب العلة فزع شديد من هول ما شاهده ، ويكون فيه شفاؤه وبرؤه . وهذه من مزاعم العرب فى زمن جاهليتهم . وقد يتصادف غالباً نجاح هذه المزاعم التى يعتقدون صحتها ، بل يكادون أن يجزموا بها كل الجزم لما سبق أن جربوه فأتى بما كانوا يتوقعون ، وحقق ما كانوا يزعمون .

تمثال دجاجة من ذهب

كان بالمدرسة الجوهرية بدمشق مائدة من ذهب ، عليها تمثال دجاجة من من ذهب . وصيصان[1] من ذهب ، فى منقار كلّ واحدة لؤلؤة بقدر الحمصة ، وفى منقار الدجاجة درّة بقدر البندقة ، وفى وسط المائدة سكرّجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التى للدرهم السوقى لا الكبير ، مملوءة حبات من الدر . قيل : إن « الملك الناصر » صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهرى فأكنزها بدهليز مدرسته ، فوشى بها إلى الملك المنصور جارية من جوارى الجوهرى ، وكان على جميع ما فوق المائدة شبكة من ذهب منسوج ، صغيرة الأعين ، حاوية صورا لكل ما فى المائدة .

قلعة من خشب

وقال السخاوى فى حوادث سنة ٨٤٥ هـ من « التبر المسبوك » :

« وحضر فى رجب من الإسكندرية الرماة ، ومعهم صفة قلعة من خشب ،

(١) الصيصان معناها « السكتاكيت » باللغة العامية المصرية .

فقدّموها إلى السلطان ، ورموا عليها بحضرته بقوس ، فخرج منها صورة شخص بسيف وترس ، فرمى عليه عبد صغير فضرب رقبته بسهم — فأمر السلطان بأن يخلع عليهم ، ورسم لهم بجامكيّة[1] ، وأن يعودوا إلى بلدهم » .

تمثال (جُعْجُرّة) من العجين

قال صاحب القاموس : كانوا يصنعونها على هيئة التماثيل — من العجين ويسمّونها بالجعاجر ، فيجعلونهـا فى الرُّبِّ إذا طبخوه ، فيأكلونه . الواحدة « جُعْجُرّة — كطرطُبّـة » ومثلها مدائن العجين التى كانت تعمل فى الأندلس يوم النيروز إلى بعض الأكابر . وعادتهم أن يصنعوا فى مثل هذا اليوم مدائن من العجين لها صورة مستحسنة ، فنظر أحدهم إلى صورة مدينة فأعجبته ، فقال له صاحب المجلس صفها وخذها ، فقال :

مدينـــة مسوّرهْ تحار فيها السَّحَرَهْ
لم تبنها إلا يد عذراء أو مُخَدَّرَهْ
بدت عروساً تُجْتَلَى فى دَرْمَكٍ[2] مزعفرهْ
وما لهـا مفاتحٌ إلا البنان العشرهْ

ووقفنا فى كتاب « المعيار » . وهو مجموع فتاوى مالـكية على سؤال يدل على أنهم كانوا يصنعون بالمغرب صور أيدٍ من الشمع والحلوى والعجين ونصه : « وسئل الأستاذ أبو إسحاق الشاطبي عن الأيدى التى يصنعها الشماعون من الشمع والفاند[3]

---

(١) لفظة فارسية أصلها (جامكى) ومعناها الوظيفة تنقد على القيام بعمل ؛ ثم غلب — استعمالها بعد ذلك — فيما ينقد من الوظائف مشاهرة ، وقد استعمل العرب فى معناها : الأطماع والأرزاق جمع طمع ورزق .

(٢) « الدرمك » بوزن جعفر دقيق الحوارى ، أى الدقيق الأبيض اللباب

(٣) « الفاند » نوع من الحلوى . وقد ورد فى الـكتب اللغوية والتاريخية بلفظ الفانيد ، بالمثناة التحتية

وما يصنع منها من العجين — هل ذلك جائز أم داخل تحت الوعيد الذى ورد فى المصورين ؟.

« وقد أجاب بالجواز ، لأنها جزء من صورة لا صورة كاملة » .

فارس على رأس القبة الخضراء

ذكر الخطيب فى مقدمة تاريخ مدينة السلام فى وصف قصر المنصور قال : « كان فى صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً ، وسقفه قبّته ، وعليه مجلس مثله ، فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى أوّل حد ، عقد القبة عشرون ذراعاً ، فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانون ذراعاً ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس ، وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد » .

وحدث القاضى أبو القاسم التنوخى — قال : سمعت جماعة من شيوخنا يذكرون أن القبة الخضراء كان على رأسها صنم على صورة فارس فى يده رمح .

وروى بعضهم خرافة عن هذا التمثال ملخصها : أنّه إذا استقبل جهةً دلّ على خروج خارجى فى تلك الجهة . ولكن ياقوت فى « معجم البلدان » فنّد هذا الزعم بقوله : ما هكذا ذكر الخطيب ، بل إنّه من المستحيل ، والكذب الفاحش ، وإنما يحكى بمثل ذلك عن سحرة مصر وطلسمات بليناس التى أوهم الأغمار صحتها تطاول الأزمان وتخيل المتقدمين الذين ما كانوا بنى آدم — لأن الملّة الإسلامية تجل عن هذه الخرافات .فبان من المعلوم أن الحيوان الناطق الصانع لهذا التمثال — لا يعلم شيئاً مما ينسب إلى هذا الجماد ، ولو كان نبياً مرسلا — فلو كان كلما توجه إلى جهة خرج منها خارجى ؛ لوجب أن لا يزال خارجى يخرج فى كل وقت » .

ثم ذكر الخطيب أن رأس هذه القبة سقط سنة ٣٢٩ هـ

فارس على منارة مسجد

ذكر ابن الأنبارى فى طبقات الأدباء قال « : ابن عائشة : كنا نجلس مع سيبويه النحوى — فى المسجد — وكان شاباً نظيفاً جميلا ، تعلق من كل علم بسبب ، وضرب من كل أدب بسهم — مع جداثة سنه و براعته فى النحو ، فبينما نحن ذات يوم إذ هبت ريح فأطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : أنظر أى ريح هى ؟

وكان على منارة المسجد تمثال فارس بفرسه وجميع آلاته من عقيق . فنظر ثم عاد فقال : ما ثبتت على حال ، ويفهم من ذلك أنّ هذا التمثال كان يدور على محور ، فإذا اتجه إلى جهة علم أنّ هبوب الريح من الجهة التى تقابلها . .

شياطين من خشب

كان المتوكل العباسى شديداً على أهل الذِّمّة ، ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة خمس وثلاثين ومائتين : أنّه ألزمهم بأمور فى ملابسهم ومراكبهم ، كلبس الطيالسة العسليّة ، وشد الزنانير ، وركوب السروج بالركب الخشب ، وغير ذلك . وأغربها إلزامهم بأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمّرة .

وقد ذكر ذلك فى « محاضرة الأوائل » أيضاً — كما ذكره القلقشندى فى « صبح الأعشى » . غير أنّه لم يذكر صور الشياطين .

وروى أن المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم ، وأذلهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين .

كما جعل على أبوابهم الدهان مثال الشياطين . وهى عبارة صريحة بأن هذه الصور كانت مصوّرة بالدهان أى ليست تماثيل من خشب .

ولا يبعد أن يكون بعضها صوّر بالدهان ، و بعضها كان تماثيل على ما يظهر . كما أن المقتدى بأمر الله أجراهم على هذه العادة ، بل علّق فى أعناقهم الجلاجل ونصب الصور الخشبية على أبوابهم .

تماثيل طيور مغردة

ذكر النويرىّ فى نهاية الأرب أن من بين ما بناه المتوكّل من القصور قصر يسمىّ (بالبرج) — قال : وكان البرج من أحسنها ، كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضّة وبركة عظيمة غُشِّى ظاهرها وباطنها بصفائح الفضّة ، وجعل عليها شجرة من ذهب عليها طيور تصوت وتصفرّ ، سمّاها (طُوبَى) . وبلغت نفقة هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار .

دلفين على بركة المتوكّل

كان مما قاله البحترى من قصيدة يصف بها بركة أنشأها المتوكّل وكان بها تمثال دلفين .

لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنّحة كالطير تنقضّ فِي جوّ خوافِيها
لهنّ صحن رحيب فى أسافلها إذا انحططن وبَهْو فِي أعاليها
صور إلى صورة الدلفين يؤنسها منه انزواء بعينيه يوازيها

فى مغاور اليمن

لو أتيح لليمن ما أتيح لمصر من الحفر عن آثارها لكشف التنقيب — فيما نرى — عن آثار مدنية هائلة لاتقل عن المدنية المصرية ، فقد روت صحف الأخبار بمصر سنة ١٣٤٠ هـ : أن سيلاً عظيماً داهم وادى مرخه بقرب مأرب ، فكشف عن مغاور بها جثث محنطة وتماثيل رجال ونساء بسحن يمنية، وتماثيل على صور البقر مكتوب عليها بالحميرية .

ونقود من الذهب والفضّة وأحجار وفصوص من العقيق حملت إلى أسواق اليمن . فاشتراها الهنود .

تمثالا غزالين من ذهب بالكعبة

كان بالكعبة تمثالا غزالين من ذهب . ذكرهما ابن الأثير فى تاريخه الكامل. فلما ضعف أمر جُرْهَم بمكّة وفنى غانبهم ، وأرادت خزاعة إجلاء من بقى منهم ، خرج عامر بن الحارث الجرهمى بالغزالين والحجر الأسود يلتمس التوبة وهو يقول :

لا هُم إنّ جرهما عبادكا والناس طِرْفٌ وهم تِلادَكا[1]

وهم قريباً عمروا بلادكا

فلم تقبل توبته ، فدفن الغزالين ببئر زمزم وطمسها ، وخرج بمن بقى من جرهم إلى أرض جهينة ، فجاءهم سيل فذهب بهم أجمعين .

ولما حفر « عبد المطلب » بئر زمزم وجدها فجعلهما صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حلّيت به الكعبة . وقيل بقى الغزالان فيها حتى سرقا قبل أن تهدمها قريش ، وذلك أنها كانت رضيمة دون القامة — فتجرأ نفر منهم على سرقة كنزها وفيه الغزالان — وكانا فى بئر فى جوفها — فهدمتها قريش وأعادت بناءها ورفعت سقفها فى سنة خمس وثلاثين من مولد النبى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) لاهم أى : اللهم . والطرف — بكسر فسكون : المستحدث من المال وهو الطريف والطارف أيضاً . والتلاد بكسر أوله : الموروث وهو التليد والتالد أيضاً .